426

HARLEQUIN

روايات أحلام

خسر قلبه

ماريون لينوكس

www.elromancia.com
مرمورية

خسر قلبه

- إذا أنا مت غداً ، هل ستبكي عليّ؟
- لن أبكي .
قال هذا قبل أن يستطيع منع نفسه ، فجمدت مكانها .
وساد صمت طويل ، قالت بعده : "لا ، أنت لن تبكي" .
- سوزي . أنا لست عاطفياً!
فقالت بنعومة : "حسناً ربما نحن متلائمان ، لأنني أنا أيضاً لست عاطفية" .
- هل تمزحين؟
- هذه هي المشكلة . إنك ترى خارج الشيء فتظن أنك تتزوج الخارج ، بينما ليس لديك فكرة عن الداخل .
- سوزي ، أرجوك . من المناسب تماماً أن نتزوج .
لكن سوزي هي آخر شخص يقبل زواجاً لمجرد أنه مناسب .
فإذا كان هاميش يريد أن يتزوجها ، عليه أن يثبت أولاً أنه يحبها...

ماريون لينوكس

ولدت في إحدى المزارع في أوستراليا، وغادرتها فيما بعد... كتبت ماريون عدة روايات لسلسلتي «الروايات الطبية» و «الروايات العاطفية». استخدمت في بداياتها اسماً مختلفاً لكل نوع من الروايات. فإذا كنتم تملكون روايات قديمة سوف تجدون رواياتها موقعة باسم تريشا دايفيد.

بالإضافة إلى الكتابة والاهتمام بزوجها، تولي ماريون اهتمامها إلى أولادها، الكلاب، القطط، الدجاج وإلى الضيوف الذين تستقبلهم إلى مائدة العشاء. كما تعتني بالحديقة وبتنظيف المنزل، لكن هذان الاهتمامان يضيعان وقتها. أما السفر فقد وجدت فيه ماريون متعة لا تنتهي.

عندما كانت في سن المراهقة قيل لها إن لا فائدة ترجى من قراءة الروايات. والآن، أصبحت الروايات محوراً أساسياً في حياتها؛ فكتابة الروايات سمحت لها بالتنقل والسفر بصورة دائمة. وإذا كان هناك من نموذج للأشخاص الذين ينجحون في تحقيق أحلامهم فهو: ماريون لينوكس!

١ - رسالة ولقب

(مطلوب معلومات عن مكان إقامة دوغال دوغلاس شقيق اللورد أنغاس دوغلاس إيرل أوف لوغانيش أو أيّ حفيد مباشر له. الاتصال بمكتب المحامين «بيرد وأوشاناسي» في دولفين باي، أستراليا. المعلومات لمصلحتكم).

- سيد دوغلاس، لقد أصبحت «إيرل».

تأوه هاميش. لقد تأخر ساعات عن برنامج عمله وستصل لجنة هارينغتن بعد نصف ساعة فيما سكرتيرته المتمرنة تكاد تجنّنه.

- افرزي البريد وحسب.

- لكن هذه الرسالة تقول إنك «إيرل». عليك أن تقرأها.

- كما قرأت الرسالة المرسلة عبر الإنترنيت من نيجيريا والتي تعرض عليّ شراكة بالملايين. كوني أذكى من ذلك، يا جودي.

فقالت ساخطة: «أنا ذكية».

ها هو يلومها، لكنها تسامحه. ومن لا يفعل ذلك؟ إنه أظرف رب عمل عرفته. وقد سرّها للغاية أن تحلّ مكان مارجوري التي استقالت. كان هاميش في الثالثة والثلاثين من عمره، طويلاً أسمر ووسيماً للغاية بشعره الأسود الأشعث، وعينيه البنيتين العميقتين المتألقتين وابتسامته الساحرة...

إذا ما ابتسم، فهذا نادراً ما يحدث. قد يكون هاميش أحد السماسرة الواعدين في سوق الأسهم في مانهاتان، لكن يبدو أنه لا

يستمتع بالحياة.

لعله سيبتسم إذا أدرك أنه أصبح «إيرل» حقاً.

- هذه الرسالة مختلفة. صدقني يا سيد دوغلاس، عليك أن تقرأها. إذا كانت صادقة فهذا يعني أنك قد ورثت ممتلكات هامة.. هذا ما قاله المحامي وأراهن أنه يعني ثروة كبرى.

- لم أرث شيئاً. هذا مجرد كلام فارغ.

- ما هو هذا الكلام؟ هل عادت جودي لإزعاجك ببريد تافه يثير الضيق؟

كانت جودي تهم بالوقوف لكنها، وعندما فُتح الباب، عادت فجلست. كانت مارسي فينيل خطيبة هاميش، وهي امرأة مزعجة. فقد سمعتها جودي تنصح هاميش مرتين بأن يتخلص منها قائلة إنها تافهة وإن بإمكانه أن يستخدم من هي أحسن منها.

لكنه أجابها: «لكنها تعجبني. إنها ذكية، سريعة البديهة ومنظمة... كما أنها تجعلني أضحك».

فردّت عليه بحدة: «سكرتيرتك ليست هنا لإضحاكك».

سألت مارسيا وهي تنظر بطرف عينها إلى جودي: «ما هذه الرسالة»

لكن جودي نظرت إلى سلسلة مفاتيحها ولم تجب. وعادت مارسيا تسأل هاميش مباشرة هذه المرة: «ما هذه الرسالة؟»

فأجاب هاميش بملل: «إنها نوع من التملّق لخداعي. وجودي لا تزعجني أكثر من غيرها هنا. بالله عليك يا مارسيا لديّ عمل علي أن أنجزه».

فقالت مارسيا: «جئت أخبرك أن بعثة هارينغتن تأجلت. تأخرت طائرتهم من لندن ساعتين. يمكنك أن ترتاح».

وقد ارتاح لكن ليس كثيراً فهذا يعني إعادة تنظيم جدول أعماله.

قالت له جودي: «سأنظّم مواعيدك».

فرمقها بنظرة شاكرة بينما تابعت قائلة: «لكنني أتمنى فقط أن تقرأ الرسالة».

رغم أنها لا تحب مارسيا، إلا أنها قد تجعل هاميش يلقي نظرة على الرسالة.

عاد يقطب حاجبيه: «جودي كوني واقعية. الرسائل التي تقول إني «إيرل» وإني ورثت ثروة، هي أحلام ساذجة».

- لكنها لا تطلب أن ترسل لهم رقم حسابك في المصرف بل تطلب منك أن تتصل بالمحامي وهذا يبدو كلاماً متحفظاً وحقيقياً.

فقالت مارسيا وهي تمد يدها: «أريني الرسالة.»

ومارسيا هي محامية تعمل في الشركة نفسها التي يعمل فيها هاميش. إنها الدماغ وهو المال، كما يقول البعض، لكن هاميش كسب المال بذكائه. كان الاثنان فريقاً واحداً، فناولتها جودي الرسالة.

ساد الصمت أثناء قراءة مارسيا للرسالة المكتوبة على ورق رسمي. لقد بدت حقيقية لجودي، فهي لا تضيّع وقت رئيسها.

وهذا كان رأي مارسيا التي وضعت الرسالة جانباً وهي تسأل هاميش وقد بدا الاستغراب على وجهها: «هاميش... هل لديك عم في أستراليا؟»

فقطب جبينه: «لا... بل، لا أظن ذلك»

فقالت جودي: «لا بدّ أنك تعرف أعمامك».

لكنها تلقت نظرة عابسة من مارسيا فتراجعت، بينما قال هاميش مخاطباً مارسيا: «لقد هاجر أبي من سكوتلندا عندما كان صبياً وهو لم يخبر أمي شيئاً عن أسرته كما مات وأنا في الثالثة من عمري».

سألته بذهول وكأن عدم اهتمامه أمر لا يُغتفر: «ألم تسأل قط؟».

- أسأل عن ماذا؟

- عن ماضيه؟ عما إذا كان غنياً؟

- أعتقد أنه لم يكن غنياً فقد هاجر بعد الحرب مباشرة عندما هاجر الكل من أوروبا. عندما تزوج أمي لم يكن لديهما شيئاً. جلّ ما أعرفه...

وتردد فقالت تحثه وهي لا تزال تحدق في الرسالة: «ما هو كل ما تعرفه؟»

- عندما كنت في الجامعة، شاطرني الغرفة تلميذ يدرس التاريخ. أخذت أراجع بعض لوائح الرحلات البحرية التي كانت بحوزته فوجدت أن أبي غادر غلاسكو في العام ١٩٤٨ على الباخرة «ماي بيلاين». لم أجد دوغلاس آخر في قائمة المسافرين فافترضت أنه كان بمفرده.

فقالت مارسيا: «ربما كان له أخ هاجر هو أيضاً. لعل أخاه سافر إلى أستراليا بدلاً من أميركا. حبيبي، هذه الرسالة تذكر شخصاً اسمه «أنغاس دوغلاس» «إيرل أوف لوغانيش»، توفي منذ ستة أسابيع في أستراليا وهو يبحثون الآن عن أقارب للدوغال دوغلاس. أبوك كان دوغال، أليس كذلك.

جمدت أسارير هاميش.

سألته مارسيا: «ماذا» ؟

نظرت جودي إلى وجهها. إنها تعرف تلك النظرة. إنها تشتم رائحة مال.

قال هاميش ببطء: «لعل من يحملون اسم دوغال دوغلاس ليسوا كثر. لكن عنوان أبي المدوّن في بيان ركاب السفينة، كان لوغانيش. لم أسمع قط بهذا المكان من قبل. قرأت الاسم وفكرت في أنني سأزوه يوماً ما لكن...»

كان هاميش أحد أصغر المتخرجين من جامعة هارفارد وقد عمل فور تخرّجه في إحدى أهم شركات الأسهم في نيويورك. وما لبث أن ترقّى بسرعة البرق، فأصبح وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، شريكاً وثرياً. لم يكن لديه وقت في رحلته العملية هذه، يمضيه في التجوال في أنحاء سكوتلندا.

- هاميش. هذا يعني أنك ورثت حقاً.

وقالت جودي بابتسامة عريضة وقد نسيت كراهيتها لمارسيا: «تقول الرسالة إنهم غير واثقين مما إذا عثروا على الشخص الصحيح. لكن الأدلة متطابقة. إنها تقول إن أباك هو أحد ثلاثة أخوة غادروا سكوتلندا سنة ١٩٤٧. الاثنان الأكبر سناً توجها إلى استراليا فيما جاء أبوك إلى هنا».

فقالت مارسيا بحدة وهي تناول هاميش الرسالة : «يمكنه أن يقرأها بنفسه».

- إنها عملية احتيال لجني المال.

فقالت مارسيا بحدة أكبر: «اقرأها».

وخطر لجودي أنه لو كان رجلها هي لما حدثته بهذه اللهجة أبداً.

لكن هاميش لم يلاحظ ذلك فيما تمتم متردداً هذه المرة: «لعل هذه الرسالة خدعة. لكن ذكر «لوغانيش» يفرض علينا التأكد من الأمر...»

فقالت مارسيا: «سأستعلم عن تلك الشركة القانونية. وسأعرف عنها كل شيء بسرعة».

- لا حاجة لذلك...

فقالت جودي بصوت خافت: «سيد دوغلاس، تقول الرسالة إنك «إيرل» وإنك ورثت قصراً وممتلكات. ما أعظم هذا! أن تكون «إيرل» سكوتلندياً».

ورن جرس الهاتف يعلمه أن «الفاكس» الذي ينتظره وصل، فعاد إلى عمله... على القصور والألقاب أن تنتظر.

- يظنون أنهم عثروا عليه.

كانت سوزي دوغلاس جالسة على السجادة أمام المدفأة في قصر لوغانيش تلعب مع طفلتها روز، البالغة من العمر أربعة عشر شهراً.

قالت سوزي لشقيقتها التوأم: «طاف المحامون في أنحاء أميركا وهم يظنون الآن أنهم وجدوا الإيرل الجديد. أظنني... سأعود إلى بيتي حالما يأتي».

فحدّقت كيرستي فيها بذعر: «لا يمكنك ذلك، فهذا هو بيتك».

فقالت سوزي وهي تجيل نظراتها بمحبة في أنحاء الغرفة: «إنه رائع لكنني لا أستطيع الإقامة هنا إلى الأبد، فهو ليس لي. لقد وافقت على الإقامة فيه حتى نهاية شهر آب، وها هو الشهر انتهى. مكثت هنا زمناً طويلاً، يا كيرستي، وحان وقت رحيلي».

- لا تفعلي هذا.

لكن كيرستي كانت تعلم في أعماقها أن سوزي محقة فلا مفرّ من الرحيل.

لقد وصلت سوزي إلى ما لا مفرّ منه بعد موت زوجها رودي وما عانته من عجز وكآبة فضلاً عن الإصابات من الحادث الذي أودي بحياته. أحضرتها كرستي إلى أستراليا لتقابل عم رودي اللورد أنغاس دوغلاس إيرل أوف لوغانيش. وكان هذا لقباً كبيراً لرجل عجوز رائع وجدت فيه صديقاً حقيقياً. في قصره غير العادي تماثلت سوزي للشفاء، كما أنجبت ابنتها وابتدأت تتطلع إلى المستقبل من جديد.

ستعود إلى الوطن؟

وطن سوزي هو أميركا. وبما أن أنغاس مات، لم يعد لديها ما يبقيها هنا.

لكن أثناء تماثل سوزي للشفاء، وقعت كيرستي، شقيقتها التوأم، في غرام الطبيب فتزوّجا. وأصبح بيت كيرستي هنا.

همست كيرستي: «قد لا يطلب الإيرل منك أن ترحلي، كان على أنغاس أن يترك لك هذا المكان».

- ما كان ليستطيع ذلك.

- لِمَ لا؟.

- بني هذا القصر بأموال الأسرة. بعد أن احترق القصر السكوتلندي الأساسي، استطاع أنغاس أن يعيد بناء القصر هنا في أستراليا.. لو أنجبت ابناً لاختلف الوضع، لكن القصر سيذهب الآن إلى ابن أخ لا يعرفه أحد. إنه الآن ملك هاميش دوغلاس وهو أميركي.

قالت كلمة أميركي باشمئزاز جعل كيرستي تنفجر ضاحكة: «تقولين هذا وكأن الأميركي حشرة في المختبر. تذكري فقط أنك أميركية يا سوزي دوغلاس».

- لم أعد أشعر بأنني أميركية.

وتقلّبت الطفلة روز، فحملتها أمها وهي تقول: «لم أعد أشعر بأنني أميركية. لدي ابنة أسترالية الآن».

- إنها نصف أميركية ونصف اسكوتلندية ومولودة في أستراليا. لكنها تنتمي إلى هذا المكان.

تنهدت سوزي ثم قالت: «لم أعد واثقة. لقد ترك لي أنغاس ما يكفي من مال لشراء بيت صغير وقضاء بقية حياتي سعيدة. لكنني بحاجة إلى عمل ولن أجد عملاً في «دولفين بي».

- لديك أنا.

فابتسمت سوزي: «أنت تعلمين أنك تعنين لي الكثير، لكنني بحاجة إلى عمل. مضى على وفاة رودي عامان تقريباً وقد شفيت

إصاباتي من ذلك الحادث تقريباً. أحببت العناية بأنغاس لكن القصر يبدو خاوياً بدونه. جلّ ما يشغلني هو العناية بالقصر والحديقة وموعد وصول الإيرل الجديد...»

- متى سيحضر؟

- لا أدري لكن المحامين قالوا إنهم وجدوه وأخبروه عن الميراث. إذا أخبرك أحدهم أنك ورثت ثروة ولقباً، ألا تسارعين بالحضور؟

ابتسمت كيرستي بكآبة وردّت: «بلى».

- عندما يحضر، لا يبقى لديّ ما أفعله.

فقالت كيرستي: «ربما لن يأتي، أو قد يطلب منك البقاء كوكيلة للقصر».

- ثم يترك المكان ويرحل من دون أن يستفيد؟ ماذا كنت لتفعلين لو ورثت هذا القصر؟

- أبيعه ليكون فندقاً.

بنى أنغاس هذا القصر في هذا المكان السحري حيث الجوّ ألطف مما هو عليه في بلده سكوتلندا... لكن القصر لم يعد يبدو الآن وكأنه من قصص الحكايات الخرافية، فهو أكبر من أن يصلح لأسرة.

قالت كيرستي بعناد: «لكنه يبدو أشبه بالبيت».

فضحكت سوزي: «هذا حسن. أربع عشرة غرفة نوم، ستة حمامات، قاعة للطعام، قاعة للرقص، ثم أنا وروز. وحتى لو جئت أنت وجيك والأولاد لتعيشوا معنا، فسيكون لكل واحد منا ثلاث غرف. فكرة الإقامة هنا جنون».

- ولكن لا يمكنك أن تعودي إلى أميركا.

بدا الجد على وجه سوزي: «أظن أنّ عليّ أن أذهب».

- انتظري حتى تتعرفي إلى الإيرل الجديد على الأقل. لعله لا

يفكر في البيع، وقد يوظفك لتحسين الحديقة.

- هذا حلم.

- لكن ستبقين حتى يأتي، فهذه رغبة أنغاس.

قالت سوزي بحنين بالغ: «كم أفتقد أنغاس».

فتقدمت منها شقيقتها تحتضنها: «هذا مؤكد يا حبيبتي».

- المالك الجديد لن يزرع حتى يقطينة واحدة.

تكلمت سوزي بحزن فابتسمت شقيقتها: «يا لها من خطيئة لا تُغتفر».

فقالت سوزي وعيناها تتألقان: «انتاجنا هو الأكبر حجماً هذا العام. أتعلمين أنني، في الليلة التي سبقت وفاة أنغاس، تسللت إلى فناء «بن بويس» وأخذت قياس يقطيناته فبدت قزمة بالمقارنة مع محصولنا؟ مات أنغاس وهو واثق من أنه سينال الجائزة السنوية».

فقالت كيرستي بجرأة: «أتعنين أن على الإيرل الجديد أن يجمع اليقطين ويتابع من حيث توقّف أنغاس».

- قال المحامون إنه خبير مالي. أتعتقدين أن خبيراً مالياً أميركياً يهتم بجائزة تحسين زراعة اليقطين؟ لا بد أنك تمزحين.

- أنا لا أمزح، وسترين. سيأتي وسيعجبه المكان وسيرغب في إيجاد من يعتني به وبالحديقة غير العادية. وسيطلب اليقطين لعشائه بقية حياته.

- لن يفعل هذا.

فقالت كيرستي: «انتظري وسترين. أرجوك يا سوزي، عليك أن تمنحيه فرصة».

* * *

حدق هاميش في سكرتيرته مذهولاً: «إجازة؟ أنت تمزحين».

- أنا لا أمزح. وإجازتك ستبدأ الأسبوع القادم. بالمناسبة، أنا

راحلة.

- كلامك غير مفهوم.

كان هاميش قد تأخر عن الاجتماع عندما دخلت سكرتيرته لتطلعه على أخبارها، وقالت تكرر بصبر: «ستبدأ الأسبوع القادم إجازتك التي تمتد على ثلاثة أسابيع، كما أنني راحلة».

حملق فيها ثم قال بضعف: «لا يمكن أن ترحلي».

فردت ضاحكة: «بل يمكنني. فأنا أعمل بشكل مؤقت هنا. جئت إلى هنا منذ سنتين لأعمل مدة أسبوعين فقط لكني لم أوقّع أيّ عقد عمل».

- لكن الناس لا يتركون العمل بهذا الشكل...

- حسناً، ولماذا يتركون العمل فيما المال كثير؟ ولكن هل لاحظت أن الموظفين يتركون هذه الشركة؟ إنهم متعبون بشكل دائم. كل ما أفعله هو أن أخرج بإرادتي قبل أن أصرف من العمل. الإصغاء إليك وإلى صاحبتك جعلني أفكر...

- أنا ومارسيا؟

- أنت ومارسيا. لقد سرّها لقبك الجديد وهي متلهفة إلى الزواج لكي تصبح «اللايدي مارسيا دوغلاس». أما بالنسبة إلى زيارة القصر...

فقال بفتور: «إنه قصر زائف»

- القصر هو قصر. إذا لم يكن مبنياً منذ ستمائة سنة فهذا لا يعني أنه ليس قصراً حقيقياً. وفكرة مارسيا التي تقضي أن تعرضه للبيع من دون أن تراه فكرة سخيفة. كنت أتحدث مع نيك فقال...

- نيك؟

فقالت بفروغ صبر: «إنه رفيقي وهو نجار. وأنا أتحدث عنه طيلة الوقت لكنك لا تصغي إليّ».

طرف هاميش بعينيه، ونظر إلى ساعته ثم وضع أوراقه على المكتب أمامه. إن جودي رائعة ومن الأفضل أن يمضي بضع دقائق ليقنعها بالبقاء، بدلاً من أن يضطر لتدريب سكرتيرة جديدة.

قالت له متوسلة: «لا تفعل هذا. أنا لا أريد أن أكون مقيّدة، فأنا هنا لتغيير حياتك وليس لأبقى».

- ماذا تقصدين.

- أنت لا ترى سوى العمل. الشائعات تقول إنك منكوب في الحب ما يفسّر أمر مارسيا، لكن هذا ليس من شأني. جلّ ما أعرفه هو أنّ لديك فرصة أغرب من الخيال أتيحت لك لكنك تلقي بها بعيداً.

جلس هاميش وقال: «هذه...».

فقاطعته ضاحكة: «هذه وقاحة. أعرف هذا. لكن على شخص ما أن يخبرك. لقد وقّع نيك عقد عمل في «نيو إنغلاند»، وسننتقل إلى هناك، ولهذا السبب سأترك العمل. وخطر لي أنني بما أني سأرحل، فعليّ أن أحاول أن أنقذك أولاً. أن تمضي حياتك كلها في كسب المال أمر رهيب، وأن ترث قصراً فتبيعه من دون أن تراه جنون. لهذا ألغيت مواعيدك في الأسابيع الثلاثة القادمة ما إن تنتهي من لجنة هارينغتن. لم ألغ تلك المواعيد وحسب، بل حددت مواعيد جديدة. لن أكون هنا في الأسبوع القادم. وإذا كان لديك عقد كما أظن فأنت أيضاً لن تكون هنا».

- لا أستطيع.

- بل تستطيع، يا حضرة الإيرل.

- جودي...

فأجابت ضاحكة: «نعم حجزت لك في الطائرة المتوجهة إلى سيدني حيث ستجد سيارة في انتظارك. يمكنك أن تتوجّه إلى «دولفين

بي» مباشرة. إذا شئت أن تصطحب معك مارسيا فقد حجزت لكما مقعدين، لكنني أعلمتهم أنك قد تلغي أحدهما».

- مارسيا لن ترافقني.

- لا، لكنك ستذهب. لقد أمضيت في هذا العمل ما يقارب العشر سنوات، ولا أحد يتذكر أنك أخذت إجازة. ألم يحن الوقت كي تلقي نظرة على الحياة قبل أن تتزوج مارسيا، و...

وسكتت لحظة قبل أن تكبت ما أرادت قوله لتقول بدلاً منه: «وتستقر؟»

عاد يقول ولكن بشيء من التردد: «لا أستطيع».

* * *

- ما هذا؟ أخرجي من هنا أيتها الدودة الغبية.

كان شعر سوزي قد نزل على عينيها فأعادته إلى الخلف بقفا يدها فيما هي تقوم برصف ممرّ بين المطبخ وباب المستنبت الزجاجي، فيما أشعة الشمس تنسكب على وجهها.

كان على سوزي أن تخرج الديدان من التربة فراحت تخاطبها بحنان وكأنها تطمئنها: «سأنقلك إلى حيث السماد.. إنه دافئ وممتع وهو جنة الدود. يا لك من دودة سمينة حلوة...».

وفجأة حطت يد على كتفها. كانت تضع سماعات تمنعها من سماع أي صوت فأزاحتها، ثم انتصبت واقفة وتراجعت إلى الخلف بسرعة.

رأت رجلاً غريباً ينظر إليها ذاهلاً، فبادلته النظر بالذهول نفسه.

كان يرتدي ملابس عفوية أنيقة وقد علّق سترته على كتفه، وهو ينتعل حذاءً بلون الكريم.

سلخت نظراتها عن ملابسه لترى من يرتديها. كان الغريب طويلاً قوي العضلات، أسود الشعر، حسن الابتسامة... لا بل رائع

الابتسامة.

كانت البوابة الخارجية مفتوحة، فرأت سيارة صغيرة سوداء متوقفة في الفناء تحمل علامة شركة لتأجير السيارات.

كان عليها أن تقفل البوابة. لكن... لعلها كانت تتوقع مجيئه فلا بد أنه الإيرل الجديد.

- هل أنت المسؤولة عن الحديقة؟

طرح عليها هذا السؤال بينما هي تحاول أن تمسح الوحل وتردّ على ابتسامته بابتسامة مماثلة.

فقالت: «نعم، أنا المسؤولة عن الحديقة وعن الأمور الأخرى، كالحراسة وتلميع الزجاج، أيّ خدمة؟».

بدا مشغولاً بالنظر إلى كرة برتقالية اللون، ضخمة الحجم، وسألها: «ما هو ذلك الشيء؟»

فابتسمت: «إنها يقطينة، اسمها «بريسيلا». أليست رائعة؟»

- لا أصدق هذا.

- من الأفضل أن تصدق أنها «عملاقة» وقد قررنا أن نقدمها في معرض «ديل» بدلاً من معرض «كونيلاند بلوز». إنها غير صالحة للأكل. إنها، في الواقع، طعام للماشية، ولكن من يهمه ذلك؟

فقال بفتور: «ليس أنا».

- المشكلة هي أننا بحاجة إلى فريق لتحريكها. منافسنا الرئيسي انتقل إلى «ديل» هو أيضاً، لكنه لا يملك الخبرة اللازمة. نحن من سيفوز بجائزة «دولفين بي» لأكبر يقطينة هذه السنة.

حاول أن يغير الحديث، فسألها وهو يشير إلى القصر: «هل من أحد في البيت؟»

- أنا وروز.

- روز؟

- ابنتي. هل أنت...

- أنا هاميش دوغلاس. أريد مقابلة سوزي دوغلاس.

إنه حقاً الإيرل الجديد. ومضت لحظة صمت خطر لها خلالها أنها ليست كما توقع... لكنه هو أيضاً ليس كما توقّعت.

لم يكن يشبه أفراد أسرة دوغلاس الذين تعرفهم... فهو أنحف وأرشق. وتقدمت وهي تعرج، لتحييه بشكل صحيح. كانت لا تزال تعاني من تصلّب على أثر الاصطدام الذي أودى بحياة زوجها.

لكن الألم لم يعد كما كان عليه. وابتسمت وهي تمدّ يدها لتصافحه، ثم أدركت أن ثمة مشكلة، فاتسعت ابتسامتها وعادت تمسح يديها بمئزرها. مدت يدها مرة أخرى قائلة: «سوزي دوغلاس هي أنا. مرحباً».

فقال وهو ينظر إلى يده: «مرحباً».

فقالت وقد خالط السخط صوتها عندما أدركت إلى ماذا ينظر: «إنها نظيفة تقريباً. إنه تراب جيد نظيف.

وفكرت في أنه من الأفضل أن تتمسك بالصبر فأضافت: «إنني أمهد الممرّ إلى المستنبت بالإسمنت. أتريد أن ترى المستنبت؟»

- مم... بكل تأكيد.

- نعم من الأفضل أن تراه أثناء وجودنا هنا. فقد ورثت هذا كله، والمستنبت رائع. عندما جئت إلى هنا، كان بحاجة إلى إصلاح، لكنني أصلحته. إنه أشبه بالمستنبتات الزجاجية التي نجدها في البيوت الإنكليزية الكبيرة.

قال وكأنه اكتشف شيئاً ما: «أنت أميركية لكنك...»

فقالت: «أنا الباقية في القصر. انتظر لحظة».

وعرجت إلى أقرب نافذة، لتطل منها إلى حيث كانت روز تنام، ثم قالت: «كل شيء على ما يرام».

فسألها: «ما هو الذي على ما يرام؟»

- ابنتي روز نائمة.

وأشارت إلى السماعات الملقاة على الوحل، وتابعت تقول: «هل تظنني كنت أستمع إلى الموسيقى أثناء عملي؟ في الواقع كنت أستمع إلى صوت ابنتي إذا استيقظت».

واستدارت وأخذت تسير نحو المستنبت: «كانوا في الماضي يسموننا (بقايا). والبقايا هن النساء الباقيات بعد موت أسيادهن».

- ومن كان سيدك؟

- رودي، ابن عمك. كان أسترالياً - سكوتلندياً لكنه تعرف إليّ في الولايات المتحدة.

فقال: «لا أعرف شيئاً عن أقاربي».

- ألا تعرف شيئاً عن الأسرة؟

- لم أعرف أحداً حتى تلقيت رسالة المحامي.

فقالت ضاحكة: «التي أعلمتك أنك أصبحت إيرل؟ هذا أشبه بحكاية سندريلا. من المفترض أن تكون، مثل سندريلا، فقيراً تعيش في غرفة على السطح».

ونظرت إليه من فوق كتفها مقيّمة ثم أردفت: «لكنهم أخبروني أنك خبير مالي في مانهاتن. لا أظنك تعيش في غرفة على سطح».

فقال معترفاً بجد: «في الواقع أنا أسكن على سطح مرتفع جداً».

وصلا إلى المستنبت ففتحت الباب على مصراعيه تريه المنظر مزهوة فهتف بعجب: «آه».

كانت مساحة المستنبت تعادل مساحة ثلاث أو أربع غرف جلوس فسيحة. وخطر له وقد دار رأسه أنّ المكان أشبه بكاتدرائية.

- إنّ الألواح الخشبية من كاتدرائية سانت ماري في جنوب سيدني. احترقت هذه الكاتدرائية بعد الحرب عندما كان أنغاس يبني

هذا المكان فلم يستطع أن يقاوم رغبته في إحضار الألواح الخشبية الصالحة إلى هنا. في السنوات القليلة الأخيرة، لم يعد لديه ما يكفي من الطاقة للمحافظة عليها. لكني توليت المهمة فقد أحببت هذا المكان جداً.

وقد لمس حبها هذا فعلاً.. شعر به في صوتها.

لم تكن تشبه أي امرأة عرفها من قبل.

كانت سوزي قصيرة نوعاً ما، ذات ملامح ودودة، وعينين بنيتين صريحتان، وشعر بني مائل للاحمرار. وقد بدا على جبهتها أثر جرح أبيض يكاد لا يلحظ لولا علامات الإجهاد حول عينيها.

كانت لا تزال شابة لكن وجهها يعكس... ما صادفته... من معاناة؟

وتذكر ما قاله المحامون عن أن زوجها قُتل في نيويورك.

وكأنها تكهنت بطبيعة أفكاره فسألته: «هل لديك معلومات عن الأسرة؟»

فأجاب: «القليل فقط، لكني أود أن أسمع المزيد. كان أنغاس آخر «إيرل» وقد مات من دون أولاده. وزوجك، رودي، هو أكبر أولاد اخوته، لكنه مات أيضاً. وكذلك ابن الأخ الذي يليه، «كينيث». أنا الأصغر بين أبناء الأخوة. لم أعرف أنغاس قط، ولم أكن أعلم بمسألة اللقب. هل هذه المعلومات صحيحة؟»

- تماماً.

- أبي وأنغاس شقيقهما الثالث وهو والد رودي وكينيث، تركوا سكوتلندا بعد الحرب مباشرة؟

- يبدو أن قصر الأسرة كان كومة من الكآبة على ساحل سكوتلندا الغربي. وقد ألقى شخص قنبلة على القصر أثناء الحرب فدمّرته. بحسب معلوماتي، لم يحزن أحد لذلك، فالفتيان نشئوا في أجواء

مسمومة تقريباً بعد أن ورث أنغاس كل شيء، بينما لم يرث الآخران شيئاً. بعد الحريق، قرروا أن يهاجروا. قال أنغاس إنّ أباك كان أول من هاجر إلى أميركا ولم يسمع أنغاس عنه أي خبر بعد ذلك.

- وأنغاس و... ماذا كان اسم الأخ الآخر... دايريد؟

- كان أنغاس في القوات الجوية فجرح في نهاية الحرب. وفيما كان يتماثل إلى الشفاء تعرف إلى ديردري، وهي ممرضة قتلت أسرتها أثناء الغارات الجوية على لندن. عندما خرج من المستشفى، قررا أن يتخذا أستراليا موطناً لهما. بعدئذ تبعهما دايريد.

وترددت سوزي قليلاً، ثم تابعت: «كانت العلاقة بينهما سيئة، وانتقل ذلك إلى الأبناء».

- لا أفهم.

- حصول الابن الأكبر على الإرث كله بينما لا يحصل اخوته على شيء هو ما سبّب المشاكل.

وتقدمت ورفعت برتقالة ذهبية بين يديها ثم عادت فتركتها تتأرجح على غصنها بشكل جميل. كان هناك المئات من أشجار البرتقال كما رأى هاميش الذي ما زال يشعر بالدوار لجمال المكان.

قالت: «أعاد أنغاس بناء قصره هنا. كان هذا عملاً جنونياً، لكنه منح رجال هذه المدينة عملاً في أحلك الظروف. لم ينجب أنغاس أولاداً. لكن دايريد أنجب ولدين. رودي زوجي وكينيث».

- قيل لي إن كينيث قتل رودي.

توترت ملامحها لكنها لم تتهرب من الإجابة: «أنغاس يقول إن أخويه كانا يكرهانه منذ البداية. ويبدو أن كينيث ساوره الشعور نفسه نحو رودي الذي سافر إلى أميركا ليبتعد عن هذا الجو. تعرّف إليّ لكنه لم يخبرني عن ثروة الأسرة التي سيرثها، والتي كان كينيث يريدها... يريدها بما يكفي ليقتل... بعدئذ، عندما علم أن أمره قد

كُشف، انتحر».

قال بلطف، محاولاً أن يخفف من العذاب الذي لم تستطع أن تخفيه: «وهذا ما جعلني أظهر في الصورة».

تنفست بعمق وردّت: «وهذا ما جعلك تظهر في الصورة»

واستدارت تواجهه قبل أن تردف: «مرحباً بك في «قصر لوغانيش»، يا سيدي اللورد، أرجو أن تتصرف بميراثك هذا بمثل كرم أنغاس. وأرجو أن تتوقف الكراهية الآن».

- وأرجو أن تساعديني.

فقالت: «أنا ذاهبة إلى بيتي، فقد تحمّلت ما فيه الكفاية... هنا. إنه إرثك. لقد ترك لي رودي وأنغاس مالاً كافياً. أتركك لأمورك».

٢- لا أحتمل وجودك

وهكذا تسلّم القصر ومن ثم قال لها: «لك جزيل الشكر، هل لي أن أستلم المفاتيح؟»

ما كان له أن يدع جودي تدسّ أفكارها الجنونية في عقله.

فكرة أن يبقى وحده في قصره هذا أخافته فقال لسوزي: «علينا ألاّ نستعجل الأمور، سأستأجر غرفة في المدينة حيث أمضي الليلة، ثم نجلس ونبحث الأمور معاً في الصباح».

فسألته مجفلة: «ألن تبقى هنا؟»

- هذا بيتك ولن أطردك منه.

- لدينا هنا أربع عشرة غرفة نوم.

فتردد: «ما أدراك أنني لست مثل كينيث»

تأملته لحظة: «أنت لست مثل كينيث. أستطيع أن أرى ذلك».

وعضت شفتها ثم عادت تركز اهتمامها على برتقالتها.

- ليس من العدل أن أرث...

- ترك لي رودي وأنغاس كل ما أحتاجه. أشكرك.

وأضافت وقد خالط أثر من غضب صوتها الآن: «لا أحد يدين لي، كما أن لا حق لأحد عندي. والعدل أو غياب العدل لا يهمانني بالنسبة إلى الميراث. لدي مهنة عليّ أن أعود إليها، أما أن أقتل من أجل المال...»

فقال بلطف: «لكن لو كانت طفلتك ذكراً لورثت هي، وهذا ليس

www.elromancia.com

عدلاً»

-أتظن أن هذا يزعجني؟.

- لا، أنا واثق من ذلك.

فقالت بفتور: «هذا حسن! إذن فقد أنهينا النقاش في هذه النقطة. لا تقلق، شعار النبالة مخصص للذكور فقط، فلا فائدة من أن أطعنك بخنجر في منتصف الليل أو أضع لك سماً في عصيدة فطورك».

فقال: «أنا لا أحب العصيدة».

طرفت بعينيها. يا له من حديث جنوني! لكن لعلها الطريقة الأنسب للحديث فقد عانت بما فيه الكفاية من الجدية. وسألته بذعر ساخر: «ألا تحب العصيدة؟ أي نوع من اللوردات أنت؟».

- أنا لست لورداً.

فابتدأت تبتسم: «بل أنت كذلك».

- ظننت أنني (إيرل».

- أنت كذلك أيضاً. ستبقى كذلك طيلة حياتك. ولكن أن تحمل لقب لورد، فهذه مسؤولية أكبر بكثير.

- لكنني لا أعرف حتى ما هو اللورد.

فقالت: «لم يعد هذا اللقب مستعملاً كثيراً. وكان أنغاس لورداً حقيقياً. لا أعرف أيّ نوع من اللوردات كان رودي ليصبح، لكن كنيث ما كان لينجح. لكن أنت، يا هاميش دوغلاس هل ستكون لورداً؟».

- يبدو هذا وكأنه تحدّ.

رفعت رأسها وتلاقت نظراتهما فيما ردّت: «قد يكون كذلك».

تردد، لا يعلم ما إذا كان يقبله. ثم قال: «ربما من الأفضل أن أمكث في المدينة وأعود عند الصباح لتنظيم الأمور».

- ليس هناك الكثير لينظّم. لكن عليك أن تقيم هنا، فالفندق

الوحيد في المنطقة هو «بلاك ستامب» ولن تجد مكاناً فيه اليوم. على أيّ حال، على أحدنا الخروج وهو أنا. أصبح هذا بيتك الآن وليس بيتي.

فقال بسرعة: «بل عليك أن تبقي. أنا بحاجة لأن أعرف المكان».

- ما الذي تنوي أن تفعله به؟

- ثمة جواب واحد عن هذا السؤال وهو البيع.

جمدت ملامحها: «هل بإمكانك ذلك؟»

- لقد درست الأمر.

في الواقع، مارسيا هي التي فعلت ذلك.

فقالت بحدة: «أنت لست بحاجة لأن أساعدك على بيعه»

ثم عضت شفتها وأردفت: «آسفة! أعرف أن البيع هو الحل المناسب، ولكن... ولكن...».

وتنفست بعمق. وفجأة... امتزج صوتها بالعاطفة... والألم، وهي تقول: «سأبقى هنا الليلة. وغداً سأذهب لأقيم مع شقيقتي حتى أتدبّر أمر سفري إلى موطني».

- سوزي... لا ضرورة لذلك...

وفجأة، بدا اليأس في صوتها، وهي تقول: «بل ثمة ضرورة».

- ولكن لماذا؟

- لأنني لا أتوقف عن الوقوع في الحب. لقد وقعت في حب رودي الذي حطم موته قلبي ثم في حب أنغاس. والآن، أنا واقعة في حب قصرك الغبي. أنا لا أنفك أحطّم قلبي ولن أفعل هذا بعد الآن. أنا عائدة إلى الولايات المتحدة حيث سنعيش أنا وروز بسعادة وهناء. والآن، إذا سمحت، أريد أن أنهي عملي. أدخل أمتعتك ويمكنك أن تختار الغرفة التي تعجبك في الطابق العلوي كله فهو لك. أنا وروز ننام في الطابق السفلي. عليّ أن أقوم ببعض الحفر قبل أن تستيقظ

روز من نومها. العشاء في السابعة. سأراك في المطبخ.

خرجت من المستنبت الزجاجي عائدة إلى شمس الخريف المتألقة. كان ظهرها مستقيماً متصلباً... فبدت صورة مجسمة للعزيمة.

لكنه لم ينخدع، إذ رأى لمعان الدموع في عينيها قبل أن تشيح بوجهها مبتعدة.

- كيرستي، إنه هنا. المالك الجديد.

كانت سوزي تبكي ولاحظت أختها ذلك في صوتها، فارتجف قلبها.

- حبيبتي، هل هو فظيع؟ هل هو كينيث آخر؟ سأصل حالاً.

- لست بحاجة إليك.

- ماذا حدث إذن؟

- سيبيع القصر.

سكتت شقيقتها. كانت تعلم أن هذا سيحدث وأنّ لا مناص من ذلك.. لكن وبشكل ما... بقي الأمل يراودها... لقد عانت سوزي الكثير بعد أن أصيبت بشكل بالغ في حادث السيارة ذاك الذي أدّى إلى مقتل زوجها. كما تملكتها كآبة عميقة لكن حبها للإيرل العجوز وحديقة القصر الرائعة، وافتتانها بابنتها، جذبها من على شفير الهاوية، وفي الشهور القليلة الماضية عادت إلى نفسها... إلى سوزي الضاحكة.

كان موت أنغاس متوقعاً... فجاء نهاية هادئة لحياة طويلة سعيدة. لكن كيرستي أدركت أن شقيقتها لم تتقبله بعد.

كانت كيرستي طبيبة، وقد رأت هذه الحالة من قبل. حب شخص ما والعناية به حتى النهاية، مراقبته وهو يذوي، لكن من دون أن تقتنع بأن النهاية تعني النهاية.

قالت أخيراً بحذر: «إذن؟».

فردت عليها سوزي بحدة: «أنا عائدة إلى الوطن.. غداً».

- لا أظنك ستتمكنين من الاستحصال على وثائق السفر اللازمة لروز قبل الغد.

- لقد سبق واستحصلت لها على جواز سفر. بقي وثيقتان فقط عليّ أن أستحصل عليهما. هل يمكنني أن أمكث معك حتى ذلك الحين؟

- بكل تأكيد.

قالت كيرستي هذا بصعوبة وهي تفكّر في بيتها الذي يوسّعانه ليضيفا غرفة أكبر للتوأمين وللطفل الصغير الذي لم تخبر أختها عنه...

- ولكن لماذا؟ ما هي صفاته؟

- إنه رائع.

ساد صمت قالت كيرستي بعده: «إذاً لماذا تريدين المجيء إلينا. ألا تثقين بنفسك؟»

- ليس الأمر على هذا النحو.

- أحقاً ؟

فأجابت سوزي بحدة: «كلا. في الواقع... إنه ليس مثل رودي أو أنغاس ولا أستطيع احتمال وجوده هنا. وهو... يملك كل شيء. لكنه لا يعرف شيئاً عن السماد. قلت له إن لدينا أفضل سماد في العالم، فنظر إليّ وكأنني أتحدث لغة لا يفهمها».

- لكن هذا طبيعي.

- ليس طبيعياً فهو ينتعل حذاءً بلون القشدة.

- لا بأس بذلك.

- لا تسخري مني يا كيرستي كاميرون!

- ومتى كنت أسخر منك؟

- طيلة الوقت. هل يمكنني المجيء إليك؟

- ليس الليلة. سأحضّر غداً إحدى الغرف وأحاول أن أطرد رائحة الدهان. يمكنك أن تحتملي البقاء معه ليلة واحدة. أو... هل تريدينني أن أحضر وأمضي الليلة معك؟

- لا. أعني.. عرض أن ينزل في فندق، لذا لا بد أنه شخص جيد. قلت له إن بإمكانه أن يبقى.

- أتريدين أن تستعيري الكلب «بوريس»؟

- كثير على بوريس أن يكون كلب حراسة.

- كان حارساً لنا ذات مرة.

وقالت أختها بصوت ضاحك نوعاً ما: «نعم هذا صحيح، لكنني بخير. سأطعم اللورد هاميش دوغلاس وأمنحه سريراً الليلة، ومن ثم أتركه وشأنه. لكنني لا أستطيع أن أراه يبيع القصر، لا أحتمل ذلك».

* * *

كان القصر مذهلاً.

فيما كانت سوزي تنهي عملها في الحديقة، اغتنم هاميش الفرصة للاستكشاف وتملكه الذهول.

كان محيّراً.. مزيجاً رائعاً من الفن والفخامة، إلاّ أنّ الأثاث أبعد ما يكون عن الفخامة. وعندما فتح باب الحمام وطالعته صورة الملكة فيكتوريا، انفجر ضاحكاً لكنه سارع إلى إغلاق الباب. وجد خمس غرف نوم خالية فاختار واحدة منها تحتوي على سرير فسيح وتطل على البحر، ما حبس أنفاسه.

كانت سوزي لا تزال تحفر في الحديقة وأخذ يراقبها لحظات وهو يفكر في أنّ الإقامة هنا محفوفة بالصعوبات.

ماذا قالت؟ أنها وقعت في غرام القصر والسماد والدود؟

لقد بكت. كما أن مظهر كتفيها ينبئ بأنها ما زالت تبكي.

إنه لا يحتمل الدموع. لذا طرد من ذهنه مشاعر سوزي.

علّق ملابسه ونظم أحذيته. لديه من الملابس ما يكفي أسبوعاً.

بشكل لا إرادي، سار نحو النافذة مرة أخرى. كانت سوزي تحفر بعنف وحدة، وكأنها تدفن آلامها... ورآها تقف، ثم تمسح دموعها بكمها.

كانت تبكي.

كان عليه أن يقيم في فندق، لكن هذا غباء. أيهرب من المشاعر؟ أي «لورد» يجعله ذلك؟

إنه الآن «اللورد هاميش دوغلاس». لو علمت أمه بما يحدث لبكت، هي أيضاً...

في المرحلة الأولى من حياته، لم يعرف سوى الدموع. فعندما كان في الثالثة من عمره، انتحر أبوه. وكانت أولى ذكرياته: حشد من النساء، ودموع غزيرة، وشهقات لا تنتهي...

ولم تتوقف الدموع فقد احتفظت أمه بذكرى زوجها في قلبها بقية حياتها.

كانت الدموع خبزه اليومي حتى ترك البيت غاضباً ذات يوم، وأسس حياة خاصة به... بعيداً عن الدموع.

إنه يكره البكاء... والمشاعر التي لا تنتهي. مهنته الآن واحة من الهدوء، حيث لا مكان للمشاعر. كما أنّ مارسيا هادئة باردة المشاعر فهو لا يريد أن يرى دمعة.

أخذ يفكر في أنه ما كان عليه أن يأتي وأن مسألة اللقب هذه سخافة فهو لن يستعمله قط. لكن مارسيا رأت في ذلك أمراً عظيماً، ومارسيا لا تبكي أبداً.

وقرر أن يتصل بها فأخرج هاتفه الخلوي.

أجابت على الفور: «هاميش» هذا رائع! إذن أنت هناك. هل علي أن أناديك لورد دوغلاس؟».

قال بضيق: «دعي عنك هذا، يا مارسيا».

فسكتت على الفور. وكان هذا رائعاً فهي لا تتطفل أبداً: «آسفة. هل كانت رحلتك مريحة؟»

- تماماً . شكراً.

ومضت لحظة صمت فيما وقف يراقب سوزي من نافذته. كانت تحفر الأرض بلهفة وكأن حياتها متوقفة على هذا العمل.

سألته مارسيا بهدوء وصبر: «كيف يبدو القصر؟»

- مضحك. المكان مليء بالتفاهات.

- هل استقبلك أحد في القصر؟

- أرملة رودي دوغلاس الذي أخبرنا المحامي عنه.

- هذا صحيح.

وسمعها تقلّب أوراقاً حتى وجدت ما تريد: «لديّ رسالة هنا. لقد قتله أخوه، ولهذا السبب ورثت أنت. كيف هي؟»

- عاطفية.

فقالت بتعاطف فوري: «أرملة بكّاءة. يا حبيبي المسكين هاميش، ما أفظع هذا! هل سيكون رحيلها عن القصر صعباً؟».

- ماذا تعنين؟

- إنها تعيش في القصر، لكنها لم تستأجره مدى الحياة. ما زال بإمكانك أن تبيع.

- عرضت عليّ أن ترحل عن القصر الليلة.

- هذا عظيم!

- لا يمكنني أن أطردها الليلة.

سمعها تستجمع أنفاسها: «حسناً، طبعاً لا. هل تظنها بحاجة إلى

بعض المال ليساعدها على الاستقرار؟ هل لديها مكان تقصده؟»

- إنها أميركية وستعود إلى وطنها.

- ليست غبية إذن. فقد سبق وخططت لحياتها. ماذا عنك؟ متى تظن أنّ بإمكانك أن تعرض القصر للبيع؟

- سأضع غداً لافتة «للبيع» على البوابة.

- كن جاداً يا هاميش، فهذا سيدرّ عليك الكثير من المال. هل يمكن أن يباع ليحوّل إلى فندق؟

- نعم.

- إذن يلزمنا سماسرة يعملون على مستوى دولي. سأجد لك بعض الأسماء.

- هذا جيد.

ولكن هل هو جيد؟ إنه جيد طبعاً! ما تقترحه مارسيا هو الحل المناسب. وعاد ينظر إلى سوزي...

- شرائح لحم وبطاطا.

ما إن فتح هاميش باب المطبخ، حتى بادرت سوزي إلى إعلان ما ستحضّره للعشاء. طرف بعينيه وهو ينظر إلى ما حوله بما يشبه الرهبة إذ صمم هذا المطبخ ليطعم جيشاً.

سألته: «كيف تحب شرائح اللحم؟»

بدت رشيقة وخفيفة الحركة. لم تكن تبكي، فقد كبحت مشاعرها، وبدت غاية في الكفاءة.

- متوسط النضج.

فابتسمت: «عظيم. هل قلت متوسط النضج؟»

- هل من مشكلة؟

- ربما كنت قد قررت تناول البازيلا قبل وصولك فهذا مأمون أكثر...»

- لأنك تعرفين كيف تحضرينها.

نظرت إليه مشككة: «لا تكن صعباً. يكفيني كيرستي».

- كيرستي؟

- إنها شقيقتي. هي وزوجها طبيبان. قالت كيرستي إن عليّ أن أكرمك في أول ليلة لك هنا وهي من أحضر اللحم منذ دقائق. ودّت أن تنتظرك لتتعرف إليك، لكنها كانت مستعجلة. وقد تركت بوريس في حال شكّلت أنت أيّ خطر.

لم يعبأ الكلب بهاميش عند دخوله. إنه حقاً يصلح للحراسة! سألها: «ماذا سيفعل الكلب إذا أصبحت خطراً؟».

فضحكت: «حينذاك سيفكر في ما سيفعله. إنه كلب داهية».

وأخرجت مقلاة، ثم أخذت تنظر إلى اللحم مترددة.

سألها: «كيف ستحضرينها؟»

فقالت بشيء من التردد: «سأقليها. لا يبدو هذا صعباً للغاية».

- هل ستحضرين البطاطا؟

- إنها جاهزة للتحضير في الفرن. ضعها أنت في الفرن مدة عشرين دقيقة ثم أخرجها. حتى أنا لا يمكن أن أخطئ في ذلك.

كانت تجهد لتبدو مرحة، وقد لاحظ ذلك.

كانت قد اغتسلت، وارتدت سروالاً من الجينز وقميصاً وردياً مقفلاً، كما سرّحت شعرها، فيما فاحت منها رائحة أشبه بروائح الحمضيات. وأعجبه ذلك.

وعاد إلى الواقع عندما سمع طفلتها تناديها، فتوقف عن التفكير في رائحتها الحلوة، وراح يفكر في مارسيا وانتظام حياته، في أنه ليس عليه أن يواجه هذا النوع من الكائنات المضطربة الباكية.

حملت سوزي إناءً من السمن غرفت منه ملعقة أو اثنتين وضعتهما في المقلاة، ثم نظرت إلى ذلك مترددة.

سألها بفتور: «ماذا تفعلين؟»

نظرت إليه بعجب ثم ردّت: «أقلي اللحم»

فتنهد: «هذه الكمية من السمن لا تصلح لذلك. هل البطاطا في الفرن؟»

- نعم.

- كيف تحبين اللحم؟

- أحبه كيفما كان.

- إذن ستأكلينه مثلي، متوسط النضج. أيمكنك أن تعطيني مئزراً؟

- أنت تمزح.

- كلا.

نظرت إليه مذهولة: «أيمكنك حقاً أن تطهو؟»

- يمكنني أن أحضّر «اللحم».

فقالت مازحة: «هل تودّ تحضير السلطة أيضاً؟ يمكنني أن أمزج الخس والبندورة بعد التقطيع، لكنني غير واثقة من أي شيء آخر».

فتنهد: «يمكنني أن أحضّر السلطة. لكنني بحاجة إلى مئزر».

قالت وكأنها لم تسمع بهذه الكلمة في حياتها: «مئزر»

- أي شيء لأغطي...

فقالت بكبرياء: «أعرف ما هو المئزر، لكنني لا أستعمله. أراهن على أن دردري لديها واحداً».

وتحولت إلى درج بجانب الباب، ثم أخرجت شيئاً جعل هاميش يحبس أنفاسه. كان مئزراً وردي اللون منقوشاً بأزهار قرمزية.

وقالت: «كنت أعرف أنها لن تخذلني. ستبدو رائعاً في هذا».

يمكنه أن يتصور الصفحة الأولى من الصحف الاقتصادية.

نظر إلى سوزي متردداً. يمكن أن تلتقط له صورة بواسطة الهاتف الخلوي.

سألها محاولاً ألاّ يبدي لهفة: «هل لديك غسالة ملابس؟»

- نعم.

- إذن سأستغني عن المئزر هذه المرة فقط.

فوضعت المئزر المزين جانباً آسفة وقالت: «هذا نبل منك. لماذا تقلل من السمن الموضوع في المقلاة؟»

- إذا ظننت أنني سأفسد أول طبق أسترالي أحضّره فأنت مخطئة.

فقالت بإعجاب ساخر: «أنت متسلّط بقدر ما أنت ماهر في الطهي»

فقال مشتت الذهن: «راقبي ما تقلينه».

فقالت بسرور: «أظننا سننسجم. تماماً أنت تحسن الطهي وأنا لا أحسنه، إنه زواج معقود في السماء».

وسرعان ما أدركت ما قالته فاحمر وجهها خجلاً. وبدت له جميلة لا بل رائعة.

أخذت روز تثرثر وهي ترفع يدها بقطعة البسكويت التي ما لبثت أن سقطت على ظهر بوريس الذي التهمها.

راحت روز وأمها وهاميش، يحدقون في الكلب الذي رفع بصره إلى روز بعشق بالغ، ثم فتح فمه مجدداً.

وضحك هاميش.

حدقت سوزي إليه باستغراب، فسألها بارتباك: «ما الأمر؟»

فأشاحت بوجهها المتوهج بعيداً: «لا... لا شيء».

- بل ثمة أمر ما.

فتنفست بعمق: «حسناً... كان أنغاس ورودي يضحكان بالطريقة نفسها. قرقرة منخفضة سارّة»

مضت لحظة لم ينطق فيها أي منهما بكلمة وتساءل إن كانت تدرك مدى تأثيرها فيه.

لم يعرف أباه قط. فهو مجرد ذكرى غامضة لشخص ما، شبح صامت رمادي اللون. وكان قد رأى صوراً فوتوغرافية حائلة اللون لرجل لا يشبهه بشيء.

لا.. بل ثمة شبه! لم يكن أيّ منهما يظهر مشاعره.

- أنا لست من آل دوغلاس. مات أبي وأنا في الثالثة، ولم يعد لي صلة بأحد ما عدا أسرة أمي.

تكلّم بحدة لم يكن يقصدها، فقالت: «لكنك من آل دوغلاس»

- -بالاسم فقط.

- ألا تريد أن تكون من آل دوغلاس؟

خطرله أنه لا يريد ذلك إذا كان يعني هذه المشاعر كلها، لكنه لم يقل ذلك، بل قال: «هيا... حان الوقت لوضع قطع اللحم في المقلاة. أربع دقائق على كل ناحية، ما يمنحني بعض الوقت لتحضير السلطة وليس للثرثرة».

- ألا تثرثر أبداً؟

- كلا.

- سأركز اهتمامي إذن على البطاطا.

- لم أقصد أن أكون فظاً.

- ولا أنا. لكن لعله الطريق الذي علينا أن نسلكه. أنت لا تريد أن تكون من آل دوغلاس، وأنا لا أحتمل وجود شخص مثلك. دعنا إذن ننهي هذه الليلة، ومن ثم يذهب كل منا في طريقة.

٣- امرأة محتالة

استيقظت على صوت غناء. لا بد أنها تحلم! أغمضت عينيها ثم عادت ففتحتهما.

كان صوتاً عميقاً غنياً يحمله النسيم إليها من الحديقة.

هل هو هاميش؟

كان الوقت مبكراً وروز لا تزال مستغرقة في النوم. ليس عليها أن تنهض الآن، كما أنها لا تريد أن تستيقظ.

وأغمضت عينيها، ثم فتحت عيناً واحداً ونظرت إلى الساعة. إنها السادسة.

هذا الرجل مجنون إذ يغني في الحديقة في السادسة صباحاً. لكن الصوت رائع.

لا بأس، ستلقي عليه نظرة. نزلت من السرير وسارت إلى النافذة ثم أخذت تسترق النظر.

كان يحفر الممر... ممرها!

كانت النافذة مفتوحة. وقبل أن تفكر بشكل منطقي، أطلت برأسها وسألته : «ماذا تفعل؟»

كان يلبس سروالاً قصيراً وحذاءً عالي الساقين فقط.

لم يكن هذا جسد رجل مال، إذ بدا طويل القامة، قوي العضلات. لوحته الشمس وكأنه أمضى عمره في مزرعة وليس في مكتب.

- لمن هذا الحذاء؟

طرحت عليه هذا السؤال ثم عادت ففكرت في سخافته، فالحذاء قديم ومن المؤكد أنه لم يحضره معه من نيويورك.

بدا وكأنه يكتم ابتسامته: «بما أنني ورثت القصر بما فيه، فهذا الحذاء لي. إنه كبير لكنني ارتديت جوربين، فما رأيك؟ هل أسبب ثورة في مانهاتن؟».

كان الكلب مستلقياً قرب منطقة الحفر يشرف على العمل فنهض مدلياً لسانه ولعق الحذاء...

وبدا الوضع سخيفاً ما جعل سوزي تضحك.

فجأة، تنبّهت لملابسها فكفت عن الضحك. ربما عليها أن تعود إلى غرفتها، لكنه كان قد لاحظ ملابسها، فقال بأدب: «فيلة جميلة».

قالت سوزي: «إنها خياطتي».

وابتسمت ففكر هاميش بمدى جمال ابتسامتها بينما تابعت تقول: «يمكنك حقاً أن تسبب ثورة في نيويورك بملابس نوم كهذه».

- لا أظن أنّ مانهاتن مستعدة لهذه الثياب بعد.

ساد الصمت، وحاولت ألاّ تنظر إليه. كما بدا كأنه يتجنب النظر إليها هو أيضاً.

سألته فقط لتقطع الصمت: «ماذا تفعل؟»

- افترضت أنك تريدين حفر البقية.

فعضت شفتها : «نعم، إنما....»

- لقد وضعت التربة في منطقة السماد، والدود في الدلو الصغير.

كان يسخر منها! فقد أنهى عملاً يتطلب يوماً كاملاً. عليها أن تشكره، وكانت ممتنة فعلاً... لكنه يسخر منها.

قالت بلهجة دفاعية: «الدود مهم جداً»

فأومأ قائلاً: «هذا ما لطالما ظننته»

- لا داعي للسخرية.
- أنا لا أسخر.
وساد الصمت مجدداً.
قالت مترددة: «عضلاتك ليست كعضلات الذين يجلسون خلف المكاتب»
- أنا أمارس الرياضة.
وعاد الصمت المطبق بينما هي تحاول ألاّ تركز على عضلاته.
لكنها ستفعل فالرجال ينظرون دوماً إلى النساء الجميلات. لماذا لا تفعل مثلهم؟
وعندما طال الصمت قال: «إذن، أنا لم أقترف أيّ خطأ؟»
استجمعت أفكارها وحاولت أن تفكر في ما ينبغي قوله، وما عليها النظر إليه: «طبعاً لا. وأنا شاكرة لك جداً».
- ماذا الذي تريدين فعله بعد الحفر؟
- لدي كومة من البلاط تحت شجر الليمون هناك.
نظر إلى حيث أشارت ثم أجفل: «تبدو وكأنها تزن طناً. هل سترصفين الممر بنفسك؟»
- طبعاً.
- لكنك مصابة. أخبرني المحامي بذلك.
- أنا بخير الآن.
- أنت تعرجين.
- أنا لا أعرج كثيراً. حالتي جيدة.
- سوزي، هل أنت مضطرة للرحيل بهذه السرعة؟
- أنا...
فقال بلهفة: «سأبقى هنا لثلاثة أسابيع. تلقيت هذا الصباح اتصالاً من أميركا ولهذا السبب استيقظت باكراً. أفضل حلّ هو أن أبيع هذا

القصر...»
راح يتحدث فيما هي تتساءل إن كانت مضطرة لسماع هذا الكلام، لكنها لم تجد أمامها خياراً آخر.
وتابع هاميش كلامه: «عبر سمسار متخصص ببيع الفنادق الممتازة سيأتي لتقييم القصر، وإذا أعجبه ما يراه، فسيعرضه دولياً. سيصل إلى أستراليا الأسبوع القادم. مارسيا ترى أن عليّ أن أقنعك بالبقاء حتى ذلك الحين».
مارسيا؟ وأخذت تتساءل عمن تكون لكنها لم تسأله.
- لماذا تريدني أن أبقى؟
- أنت تعرفين تاريخ القصر، والوكيل يعتبر هذا هاماً. الناس الذين يأتون إلى مكان خاص غير عادي سيرغبون في أن يعرفوا تفاصيل عن أنغاس والأسرة والقصر القديم.
- سأكتبها لك.
- سأبيع القصر بسعر أكبر إذا كنت أنت الدليل. أرملة من كان سيصبح الإيرل الوريث.
- إذا ظننت أن بإمكانك أن تستغل مقتل رودي لتضفي سحراً خاصاً على القصر...
- لم أقل هذا.
فحملقت فيه: «لست بحاجة لأن تقوله».
- لكنك ستبقين؟ سأدفع لك أجراً.
- لماذا ستدفع لي؟
فكّر قليلاً: «حسناً، يمكنك أن تستمري في رصف الحديقة».
ونظر إليها مقيّماً ضارباً على الوتر الحساس: «لأنك تودّين أن تنهي رصف هذا الممر».
فعضت شفتيها: «هذا صحيح».

- وسأكون سعيداً بأن أدفع لك أجراً للعناية بالحديقة. فكري في هذا العرض.

وتملكها الارتباك. هل توقعت مزيداً من... الجدل؟

رأت أن بقاءها هنا غباء، بل أكثر من غباء. نظرت إلى ظهر هاميش العريض العاري وفكرت في أن بقاءها هنا سيجلب لها المتاعب. فهي لم تنظر إلى رجل آخر منذ موت رودي، ولن تنظر طبعاً، لكن شيئاً في هاميش جعل مبادئها تهتز بعض الشيء.

لم تشأ أن تهتز مبادئها. لقد اهتز عالمها بما يكفي في حياتها.

عليها أن ترحل وعلى الفور.

ولكن... لقد عاشت مع ابنتها هنا أكثر من عام، وبدأت تحزم أمتعتها منذ وفاة أنغاس. لكن جهودها كانت غير جادة، وهي بحاجة لوضع خطة لحياتها. لذا، لن يكون رحيلها اليوم بالذات منطقياً.

استمرت تفكر في أمرها وهي تنظر إلى هاميش وهو يحفر. كان قوياً ويرغب في العمل لكنه غير معتاد على هذا النوع من العمل في منهاتن.

سيكره السكان المحليون فكرة أن السيد الجديد رجل غير معتاد على العمل الشاق.

وقادتها هذه الأفكار إلى متاهات أخرى. لقد طلب هاميش خدمة منها، ولعلها تستطيع هي أيضاً أن تطلب منه خدمة. لقد ترك موت أنغاس فراغاً كبيراً. ربما سيتمكّنون من العثور على سيد للقصر ولو لأخر مرة... ربما...

نادته قائلة: «سأفعل ذلك ولكن بدون أجر».

رفع إليها بصره بدهشة، وكأنه لم يتوقع رؤيتها في المكان نفسه.

- هل ستبقين؟

- حتى أنني سأطهي الطعام.

وضحكت.

- مزيداً من الطعام المقلي؟

- يمكنني أيضاً أن أحمّص الخبز وأحضّر عصيدة القمح إذا أحسنت التصرف.

ابتسم لقولها هذا فعادت الدهشة تتملكها. إنها قهقهة دوغلاس وابتسامته في جسد ليس جسده. إنه جسد لا تعرف عنه شيئاً ولا تريد أن تعرف عنه شيئاً.

عليها أن تتشبث بمبادئها هذه.

- أنا متشوّق لتذوّق خبزك المحمص، يا سيدة دوغلاس.

قال هذا بلهجة رسمية مهذبة فابتسمت. لكنها عادت ففكرت في أن الابتسام ليس بالفكرة الحسنة.

إنه من آل دوغلاس!

قالت له عندما استأنف الحفر: «يصادف غداً مهرجان الشكر الذي يقام بعد الحصاد. سنحتاج إلى اللورد».

- عفوا؟ لم أسمع

- السيد الإيرل هو الذي يفتتح المهرجان. لا أحد سيحتفل غداً لأن السكان ما زالوا في حالة حداد على أنغاس. ولكن عدم وجود أيّ إيرل، سيكون فظيعاً. ربما يمكننا أن نستفيد منك غداً بصفتك آخر شخص من دوغلاس.

جمدت مجرفته في الجوّ... ثم عاد يحفر، وهو يقول: «لعلي لست آخر شخص من آل دوغلاس. يبدو أن عشيرة دوغلاس كبيرة. وإذا أعطيتك دليل الهاتف، فستجدين الكثيرين الذين يحملون هذه الشهرة».

- هذا صحيح. لكنك «إيرل دوغلاس» الوحيد في هذا الفرع من شجرة العائلة.

- وهذا يقودني إلى . . . ماذا؟

- إلى افتتاح المهرجان غداً.

توقف للحظة، ثم استأنف العمل مجدداً: «ماذا يتطلّب هذا بالضبط»

- التلفّظ ببضع كلمات: (أنا الآن أعلن افتتاح هذا المهرجان) وذلك بعد أن تتوقف موسيقى مزمار القرب.

قال بحذر: «موسيقى مزمار القرب. . .»

رأت سوزي أن هذا الرجل ليس غبياً كما يبدو، إذ تكّهن بما تقصده. ورأت الشك يزداد في نظراته فكادت تقهقه ضاحكة وقالت: «إنها تنورة جميلة للغاية».

وضع المجرفة على الأرض ثم التفت إليها وقال بجديّة: «لا تطلبي هذا مني يا سوزي. إن ركبتيّ ليستا جميلتين».

عندئذ انفجرت ضاحكة: «أرى من هنا ركبتين حسنتين».

- أنا أريهما فقط لأفراد من أسرة دوغلاس.

- أتعنيني أنا؟

- أنت وأمي.

- ليس. . مارسيا؟

- لدى مارسيا عقل يجعلها لا تنظر. ما كنت لترينهما لو لم تستيقظي باكراً من النوم. لن أكشف ركبتيّ، وبالتالي لن أفتتح المهرجان.

- إذن، سأحزم أمتعتي.

- سوزي. هذه رحلة عمل.

وفجأة، بدا في صوته ما تجاوز التضرّع.

- يبدو عليك الخوف.

رمقها بنظرة تقول إنها لم تخطئ في تكهنّها هذا، لكنه قال: «هذا

غباء، لِمَ أخاف؟»

- لا شيء مخيف في وقوفك مرتدياً تنورة لتتلفظ ببضع كلمات.

- الناس سيتوقعون. . .

- لن يتوقعوا شيئاً. لقد عشق الناس هنا العم أنغاس. أنت لا تعرف القصة لكن هذا القصر أنقذ المدينة. بعد الحرب، كان الناس يعيشون من صيد السمك. . . وكان الصيد وافراً. لكن بعض الأمراض قضت عليها، ولم يعد لدى الناس سوى خيارين، إما الهجرة وإما الموت جوعاً. وإذا بأنغاس يأتي. رأى هذا المكان فوقع في غرامه وأدرك أن الأمر الوحيد الذي يجعله يستمر هو حرفة أخرى! وهكذا أقنع الأوصياء على أملاك أسرتك بأن يدعوه يعيد بناء القصر هنا. أخذ الرجال يعملون في بناء القصر، ويعيدون بناء أسطول الصيد. عشق الناس هنا أنغاس، وقد حطّم موته قلوبهم حقاً. ستلبس التنورة غداً. . . وهذا لن يعيد أنغاس إلى الحياة ولكنه قد يملأ فراغاً لم يحتمله أحد.

إنها مشاعر. . . مزيد من المشاعر. لكن رأس سوزي كان مرفوعاً، في حركة تحدٍ وليس حزن.

يفتتح مهرجاناً. . إنه عمل عاطفي غبي، وعليه أن يهرب بعيداً عنه.

سألته: «لماذا تحفر ممرّي؟»

- كنت ضجراً.

- ماذا ستفعل بانتظار وصول السمسار؟

- أتفحّص كتب القصر.

كان يفكر في التخلص من الكتب التافهة، لكنه لم يقل ذلك.

قالت: «كتب القصر بين أيدي الأوصياء. السيد أوشاشازي هو محام محلي لكن مكتبه يقفل أبوابه دوماً نهار الجمعة. وهذا يعني أنك

لن تتمكّن من العمل قبل يوم الاثنين ما يمنحك العطلة الأسبوعية لافتتاح المعرض».

- عليّ أن أحفر ممري هذا.

قالت بنبرة محاربة تقريباً: «هذا ممري أنا»...

ثم سكتت قبل أن تردف: «أعني...»

فقال بسرعة: «إنه ممرك حتى ترحلي».

- وهذا يعني اليوم إلا إذا افتتحت المهرجان.

- لماذا هو بهذه الأهمية؟

- لا أريد أن يكون المسرح خالياً.

- هذه لفتة عاطفية.

- وما الخطأ في ذلك؟

- أنا رجل أعمال.

- ستعود رجل أعمال عندما ترحل عن هذا المكان. كن لورد دوغلاس لفترة صغيرة. إنه لقبك فاستمتع به.

- ظننت أن الأسياد يمتعون أنفسهم بـ... لا أدري، بإقامة الولائم وقيادة السيارات الفخمة.

- يمكنك أن تتناول العصيدة والتوست على الفطور. ثم سمّها وليمة دسمة. وسأوصلك إلى المهرجان بسيارة أنغاس «الفورد» القديمة. إنها تسير على أربع عجلات كأيّ سيارة فخمة، فما هي مشكلتك؟

- ليس لديّ تنورة سكوتلندية.

- أحقاً؟ إن تنانير أنغاس لا تصلح لك، فقد كان قصير القامة.

ورأى المشاعر ترتسم على وجهها فاجفل لكنها عادت وتمالكت نفسها: «اعتاد زوجي أن يأتي إلى هنا قبل... قبل أن يسافر إلى ما وراء البحار ونتزوج. كان لدى أنغاس تنورة خيطت لزوجي، وهي

بمقاسك تقريباً»

عظيم! سيذهب إلى المهرجان مرتدياً تنورة زوج هذه المرأة الميت.

وقرأت التعبير الذي ارتسم على ملامحه فقالت: «أنا لا أطلب منك التعاطف».

وبدا في صوتها غضب مفاجئ وهي تضيف: «كفّ عن التحديق فيّ متوقعاً أن أنفجر بالبكاء قائلة لك إنك تشبه رودي».

- أنا لم...

فقالت بحدة: «أنا لست بحاجة إليك».

- أنت لا تحتاجينني طبعاً.

- سيأتي الكثيرون غداً، ومعظمهم كبار في السن. لم يمض على وفاة أنغاس سوى أسابيع قليلة، وسيرون المنبر الخالي ما سيفسد مهرجانهم. إذا حضرت أنت وافتتحت المهرجان وجلت في الأنحاء لبعض الوقت من دون أن تخبر الناس أنك ستبيع القصر فسيستمتع المواطنون بوقتهم بدلاً من التركيز على الحزن. المهرجان مهدد بالكآبة والوحشة، وبإمكانك أن تغيّر الوضع.

- لا أريد أن...

- أنت تريد ما هو مناسب للقصر. تريد أفضل مردود مالي. قلت لي بنفسك إنك ستحصل على مبلغ أكبر إذا أنا بقيت حتى يأتي السمسار. استعمل إذن عقلك وليس قلبك يا هاميش دوغلاس. ما هو التعقل في الرفض؟

إنها على حق، ولكن...

قال بضعف: «لا أظنني أريد ذلك».

رمقته بنظرة انتصار. لقد تغلبت عليه وهي تدرك هذا. قالت: «سأذهب للبحث عن التنورة. ودع الحفر فقد ملأت البثور يديك.

الفطور بعد نصف ساعة».

- نعم...

- إنها أولى ولائمك، يا سيدي اللورد.

وضحكت، وسارت لتبحث عن تنورة لسيدها.

* * *

- إنه أشبه بسمكة خارج الماء.

قالت لأختها: «إنه هنا ليكسب المال. سيبيع. كان عليّ أن أكرهه، ولكن ثمة شخصية أخرى خلف مظهره هذا».

- شخصية حسنة؟

- إنه يغني.

وأبعدت الساعة عن أذنها لتُسمع أختها صوته. وأصغت هذه لحظة ثم قالت: «هذا رائع. صوته مليء بالرجولة. هل أنت مهتمة به؟»

بعض الأسئلة غبية حقاً: «ولماذا أهتم به؟ على أيّ حال، اتصلت بك لأخبرك أن بإمكانك أن تستعيدي كلبك، فأنا آمنة تماماً. وقد وافق على افتتاح المهرجان غداً».

- وافق على...

وساد صمت ذاهل ثم صدر ما يشبه شهقة باكية عن كيرستي: «هل سيفتتح المهرجان؟ مرتدياً تنورة دوغلاس السكوتلندية؟»

- نعم. مرتدياً تنورة دوغلاس السكوتلندية.

- سوزي...

- لن تبكي، أليس كذلك؟

طرحت سوزي السؤال متوترة فشهقت كيرستي مرة أخرى.

- لا، ولكن الكل سيفعل هذا.

- من الأفضل ألاّ يفعلوا، وإلاّ سيهرب.

- فليهرب إلى حيث يشاء. بعد افتتاح المهرجان، سيبدو ذلك

المنبر الخالي فظيعاً. ولكن، عندما يفتتح شخص من آل دوغلاس، المهرجان... ستكون النهاية سعيدة.

- نعم، لا. حسناً، أظن أنها نهاية أفضل مما كان متوقعاً. سيكون هذا أشبه باحتفال وداعي لهذا التقليد.

- ولكن هل هو لطيف حقاً؟

طرحت كيرستي هذا السؤال فاحمر وجه سوزي. إنها توأمها وتعرف المنحى التي تتخذه أفكارها، حتى قبل أن تفكر فيها. فقالت لأختها بتحفظ: «ابنتي تحاول أن تعتلي ظهر كلبك. عليّ أن أذهب إليها».

وأقفلت الخط لتقطع الطريق على أيّ تخمينات.

كان الوضع بينهما رسمياً على مائدة الفطور. بدا هاميش أنيقاً، هادئاً، متعالياً.

رفض هاميش أن يأكل العصيدة وهي أحد الأطباق القليلة التي تجيد سوزي تحضيرها. أي نوع من رجال آل دوغلاس هو إن كان لا يحب العصيدة؟ لكنها قررت أن تتغاضى عن ذلك.

بدا هاميش وكأنه لم يلاحظ أنّ روز وبوريس يحاولان إضحاكه. بدا وكأن مزاجه قد تغير، فهو دمث مهذب لكنه غائب الذهن.

وبعد أن أنهيا طعامهما، عرضت عليه بشيء من الارتباك أن يقوموا بجولة في القصر، فوافق. حملت روز بينما تبعهم الكلب، وراحت تفتح الأبواب واحداً تلو الآخر، شارحة المحتويات. كان التحفظ ليستمر بضعة أيام أخرى لو لم يبتسم هاميش ضاحكاً... عندئذ، تملّكها شعور غير عادي.

- هذه غرفة النوم رقم سبعة...

فقال بأدب: «رأيتها أمس وحدي»

- هل جلت على غرف النوم وحدك؟

- كنت أختار غرفة لنفسي. قلت إن بإمكاني أن أختار أيّ غرفة في الطابق الأول.

- إنها غرفك كلها.

- إنه قصر جميل. وماذا عن الشاطئ؟

كانت الغرف الشمالية كلها تطل على البحر الذي يتألق بلونه الأزرق.

- ثمة طريق يؤدّي إليه ويتفرّع عن الطريق العام. عندما تحوّل القصر إلى فندق، ستحتاج لبناء درجات فالطريق منحدر قليلاً.

- هل الشاطئ صالح للسباحة.

- تماماً.

- هل ستريني إياه؟

- يمكنك أن تجده بنفسك. توجه شمالاً، وعندما تشعر بالبلل تكون قد وصلت إلى البحر.

- هل تحب روز والكلب البحر؟

- أنا... نعم.

ابقي الحديث رسمياً... ابقيه رسمياً.

- سأذهب وأبحث عنه بنفسي إذن. هل أفعل؟

- إذا شئت.

- هل هو آمن للسباحة؟

- بل عظيم للسباحة.

- سأغير ملابسي إذن، وسأعود عند الغداء.

اهدئي، اهدئي!

لكنها لم تستطع ذلك، فقالت: «لا أستطيع أن أنزل إلى البحر وحدي».

لقد غاب التعقّل لتحلّ مكانه اللهفة. كان هذا أصعب جزء من

حياتها هنا مع روز، فالطريق أكثر انحداراً من أن تتمكن من قطعها وهي تحمل طفلة. وأن يكون البحر قريباً منها بهذا الشكل من دون أن تستطيع السباحة، أمر يكاد يقتلها. يمكنها أن تذهب إلى الشاطئ إذا وجدت من يحمل لها روز.

وأخذت تحدث نفسها. قولي... قوليها.. فقالت متلعثمة: «إن ساقي... ضعيفة».

- ألا تستطيعين النزول إلى الشاطئ؟

- ليس وأنا أحمل روز.

- وهل تحبين الشاطئ؟

- أعشقه، وكذلك روز وبوريس. كلنا نعشقه.

- إذن، إذا أنا حملت روز...

تخلّت عن تحفّظها، وقالتَ بلهفة: «عندئذ، سنرافقك. سأملأ سلة بالطعام، ونحضر مظلة وبساطاً تنام عليه روز عندما تتعب من البحر».

فسألها مجفلاً: «كم من الوقت سنبقى؟»

ردّت بسعادة: «ساعات وساعات. إن كنت سأرحل نهائياً بعد أيام، فأودّ أن أشبع من البحر. إذا أصبح هذا المكان فندقاً فخماً، فلن أتمكّن من رؤيته طيلة حياتي».

- جلّ ما سأفعله إذن هو حمل روز؟

- وسلة الطعام والبساط. وقد تضطر لأن تقطع المسافة.

- يا لك من محتالة!

- البحر يستحق ذلك.

www.elromancia.com

٤ - امرأة أم حورية؟

حمل السلة والبساط والمظلة إلى شاطئ البحر وتركها هناك. ثم عاد ليحضر حمله الثاني. كانت سوزي تنتظره وهي تحمل ابنتها وكيساً يحوي حاجياتها.

قالت لابنتها وهي تسلمها إلى هاميش: «سيأخذها هاميش إلى البحر».

فابتسمت الطفلة ولفت ذراعيها حول عنق هاميش الذي جمد مكانه. كان شعوره بذراعيّ الطفلة غريباً... غريباً حقاً.

لم يحمل هاميش طفلاً في حياته. وقد توقع منها أن تصرخ، أو أن يتصلب جسدها. لكنها وبدلاً من ذلك، تعلقت بعنقه بسعادة وراحت تغني...

- هل ستكونين بخير؟

على الفور استحالت ابتسامتها إلى حملقة غاضبة: «سبق ونزلت إلى البحر في ظروف أسوأ من هذه. خذ روز وسأتبعك».

وهذا ما فعله. لكنه سار ببطء لئلا يبتعد كثيراً عن سوزي، الطريق المنحدرة ستكون صعبة عليها رغم أنها لن تعترف بمقدار تألمها. وخطر له فجأة أن ما يريد أن يفعله هو أن يحملها بين ذراعيه ويسير بها.

لكن حتى لو لم يكن يحمل ابنتها لضربته حالما يفعل ذلك.

وأخيراً وصلا إلى الشاطئ، وراح الكلب يطارد طيور النورس

بينما رفعت سوزي روز من بين ذراعي هاميش وأخذت تخلع عنها ثيابها.

لم ير قط من قبل شاطئاً كهذا. كان خليجاً تحميه من البحر والرياح صخور ناتئة ويبلغ طوله مئتين أو ثلاثمائة ياردة. كانت الرمال ناعمة ذهبية أدفأتها أشعة الشمس، والبحيرات الطبيعية التي تحيط بها الصخور في آخر الخليج تتلألأ.

سألته وهي راكعة قرب ابنتها: «أرأيت لماذا تملكني الضعف حتى طلبت العون؟»

- ولماذا كان عليك أن تضعفي قبل أن تطلبي هذا؟

فترددت: «لا أحب أن أطلب العون».

- لا بل السبب أعمق من هذا، أليس كذلك؟ أنت تخافين مني.

- لا. أنا...

- ماذا فعل بك ابن عمي؟

- الأمر ليس كما تتصوّر.

- أخبريني إذن.

أجفلت. ثم أجلست ابنتها على الرمال، فابتدأت روز تزحف نحو بوريس الذي يطارد طيور النورس.

انتظر هاميش، مفسحاً لسوزي المجال. وأخيراً، جلست القرفصاء وأخذت تنظر إلى البحر ثم قالت هامسة: «قتل كينيث رودي ليرث هذا كله. وعندما اكتشف أنني حامل، حاول أن يقتلني أنا أيضاً. أرغمنا، أنا وتوأمي كيرستي، على الصعود إلى زورق هنا في هذا الخليج وحاول أن يدفعنا نحو الصخور».

ارتجفت، ثم حاولت أن تبتسم: «لكننا كنا صلبتين. لا أحد يمكنه أن يعبث مع توأم ماكماهون».

- هل أنتما توأم؟

- نعم. أغرمت كيرستي بطبيب محلي وتزوجا السنة الماضية، وهي تتأقلم في هذا البلد بسرعة.

- لكن أنت تريدين أن تعودي إلى وطنك؟

- حياتي في أميركا. وقد حان الوقت للعودة والانخراط في المجتمع. إما أن ينسجم الإنسان مع حياته وإما أن يموت. كانت حياتي مجرد فوضى لفترة، لكنها عادت إلى وتيرتها الطبيعية الآن.

- لماذا تخافين مني إذن؟

- أنا لست خائفة.

- بل أظنك كذلك.

فقالت شبه غاضبة: «روز بحاجة لأن تسبح وهذا النهار أجمل من أن نمضيه في الحديث عن الماضي».

- أنا موافق. أنا بحاجة إلى السباحة أيضاً.

- نهاية الأمواج هي المكان الأفضل للسباحة، أنا وروز نسبح في النهاية الخالية من الأمواج.

- تعنين نهايتين مختلفتين. والآن، كيف عرفت أنك ستقولين هذا؟

فقالت بحدة: «اذهب واسبح. يكفيك تحليلاً نفسانياً. لعلها آخر مرة أسبح فيها في هذا المكان وأريد أن أستمتع بذلك».

أمضت سوزي الساعة التالية في المياه الضحلة من دون أن يغيب عنها هاميش ولو للحظة.

وضعت روز في الماء فراحت تضحك وتغني وتثرثر فضحكت سوزي معها.. لكن عينيها لم تفارقا هاميش.

كانت تنظر إليه، وهو يشق المياه، بما يشبه الغيرة. بدا حراً. كان حراً في أن يعيش في هذا المكان إذا شاء.

لكنه لا يريد ذلك، بل ينوي أن يكسب المال منه، ثم يرحل.

وأخيراً، بدأت روز تتعب فتكوّرت في حضن أمها التي حملتها

وسارت بها على الشاطئ.

بقي هاميش بعيداً عنها فيما كانت تطعم ابنتها. ولكن ما إن استسلمت روز للنوم حتى انضم إليها.

بدا خلاباً بكتفيه العريضتين وورکيه الضيقين وجسمه الرياضي الضامر وبشرته التي لوّحتها الشمس، وخصلات شعره السوداء. لكنها حدثت نفسها بلهفة بأن تتجاهل هذا كله.

قالت: «حملت معي فطائر، وقد أكلت مع روز. أتريد أن تأكل؟»

نزل على ركبتيه كرجل لم ير الطعام منذ أسبوع. فأخذت تنظر إليه، مستمتعاً بالطعام الذي أعدته... وحدثت نفسها بعنف بأن هذا المشهد ليس مثيراً أبداً، لكنها تعلم أنها كاذبة.

قالت له بلهجة رسمية: «أنت تسبح جيداً».

- نشأت في كاليفورنيا، لكنني لم أر قط شاطئاً بجمال هذا الشاطئ.

- أنت لم تسبحي.

احمر وجهها: «حسناً، وكيف أستطيع السباحة ومعي طفلة عمرها أربعة عشر شهراً؟»

- أتودين أن تسبحي؟

كبحت رداً فظاً آخر: «أنا مرتاحة هكذا»

- روز نائمة فيمكنك أن تسبحي.

- لا أحب أن أترك روز على الشاطئ وحدها.

فقال بلطف: «ليست وحدها. إنها معي».

كانت طفلتها مستغرقة في النوم وهاميش يقدم لها الحرية، وهي تودّ حقاً أن تسبح.

ولكن ثمة ما يمنعها. ليس عدم الثقة بالضبط، بل... ولم تستطع أن تحدد ما هو.

فقال يحثها: «يمكنك أن تثقي بي».

- أعرف هذا.

- يمكنك أن تراقبيها فيما أنت تسبحين. هيا، يا سوزي. ستحبين ذلك.

نعم، ستحب ذلك.

- ما الذي يمنعك؟

- لا شيء.

- اسبحي، وإلا ألقيت بك إلى الأمواج.

- أحب أن أراك تفعل ذلك.

فقال معترفاً: «لا، لن أفعل. لعلي ورثت لقباً، لكن اللورد الذي يضرب الفلاح هو مختلف جداً من رجل الأعمال الذي يقدّر معاونيه».

هاميش هو من جعلها تتوتر وليس السباحة فسوزي معتادة على أن تسبح كلما أحضرت كيرستي التوأم. كانتا تتناوبان على حراسة التوأم بينما تسبح الأخرى في المياه العميقة مستمتعة بالحرية.

لكن حادث السيارة الذي قتل رودي ألحق الأذى بعمودها الفقري. وبالرغم من أنها شفيت ببطء بالغ، إلاّ أنها لا تزال عاجزة عن أن تركض وتسير كما تحب.

ولكن في الماء لطالما تفوّقت على كيرستي في السباحة. وقد كانت قائدة فريق الولاية في لعبة كرة الماء. ولكن مشاغل الحياة منعتها من التقدم في هذا المجال.

سارت في الماء متصلبة الجسم ثم وقفت لحظة ما لبثت بعدها أن اندفعت كالسهم تشق الأمواج.

رائع. رائع تماماً! ما إن ارتمت في حضن الموجة حتى شعرت وكأن حياة أخرى تتملكها. الحياة التي عرفتها قبل حادث السيارة، قبل موت رودي، وقبل أن تصبح أماً. عادت فتاة شابة مرة أخرى،

حرة صحيحة الجسم ومستعدة لما يحمله يومها.

وأعطاها هذا الشجاعة لمواجهة المستقبل.

التفتت إلى الشاطئ فرأت هاميش يراقبها، واستطاعت أن تلاحظ توتره. كان جالساً على الرمال مع بوريس فيما تكورت روز مستغرقة في النوم قربهما. كان من المفترض أن يستلقي في الشمس ليرتاح، لكنه جلس متأهباً ينظر إليها.

إنه يلعب دور المنقذ على الشواطئ. إذا وقعت في مشكلة فسيصل إليها في دقيقة لينقذها.

لوحت له بيدها، فبادلها ذلك، لكن التوتر بقي مهيّمناً. ابتسمت ضاحكة ثم... تلاشت الابتسامة.

أدركت أنها أحبت أن يكون عامل إنقاذ لها.

من سينقذها عندما تعود إلى أميركا؟ لكنها حدثت نفسها بأنها لن تحتاج إلى من يساعدها هناك. ستكون بخير. لقد مرّت بفترة اكتئاب من قبل ولن تكتئب مرة أخرى.

استدارت لتواجه الطرف الآخر من الخليج. أخفضت رأسها... ثم سبحت.

أخذ هاميش ينظر إلى سوزي وهي تعرج عائدة إلى الشاطئ.. وذُهل إذ رآها رائعة الجمال... خلاّبة.

لكنها مصابة أيضاً، كانت ترتدي ثوب سباحة يبرز كل مفاتنها لكنه كشف أيضاً عن ندبة كبيرة عند أسفل ظهرها. هل هذا أثر الإصابة في ظهرها التي سببت لها العرج؟

لقد فقدت زوجها وهي تنشئ طفلة بمفردها، وها هو يطردها من قصرها.

شعر بانقباض في داخله وهو يراها تسير في الأمواج. وحدّث نفسه غاضباً بأن القرارات العاطفية لا مكان لها هنا، فهذا القصر

سيدرّ عليه ثروة صغيرة...

لا، بل ثروة كبيرة... وبقاء امرأة وطفلتها هنا بصورة دائمة أمر يدعو إلى السخرية.

أخبره المحامون بأن دخلها مضمون، وقد كررت هي نفسها هذا الكلام. يمكنها أن تعود إلى أميركا وإلى حياتها قبل أن تتعرف إلى رودي...

بقي ينظر إليها وهي تقف وتنظر من حولها وكأنها تريد أن تستوعب جمال الخليج.

جمدت لحظة، ثم انطلقت كالسهم تلاقي الموجة الآتية فنسي هو جمال الخليج.

لقد اختفت ببساطة. غاصت تحت الماء حتى بدا وكأنها لم تكن موجودة أبداً.

ولم تعد إلى السطح. انتصب واقفاً ورفع يده يظلل عينيه وهو يتقدم إلى الأمام محاولاً أن يرى...

صعدت أخيراً إلى سطح الماء على بعد خمسين ياردة من المكان الذي غابت فيه. تنفست، ثم غاصت تحت الماء مرة أخرى.

أين؟ أين؟؟

بدت كشبح يظهر ويختفي.

لم ير قط من قبل شيئاً كهذا. إن ظن نفسه سبّاحاً ماهراً، فأقل ما يقال عنها إنها رائعة.

كان قد ركض خطوات عدة أثناء تلك الثواني المخيفة، بينما بوريس يلاحقه. فالتقط قطعة من الخشب وألقاها إلى المياه الضحلة، متظاهراً أنه يلهو وأن الذعر لم يتملكه، وأن منظر سوزي وهي تسبح بمثل هذا الجمال لم يؤثر فيه.

لكنه ترك فيه أثراً. فقد شعر... لم يعرف بما ذا شعر!

راح بوريس يجري على الشاطئ، معيداً هاميش إلى الواقع أو إلى ما يشبه حالته الطبيعية.

قال يخاطب الكلب وهو يجلس على الشاطئ، محدّقاً في البحر: «أنا لست عامل إنقاذ هنا، ويمكنها أن تسبح بشكل أفضل مني، لا يمكنني أن أفعل شيئاً لسيدتك يا فتى، سوى الجلوس مع طفلتها لأمنحها مزيداً من الحرية».

ولوّحت له من خلف الأمواج، فردّ لها التحية.

الحرية...

إنها متألقة في حريتها. وتذكّر فجأة مكتبه في مانهاتن. إنه مكتب ممتاز بنوافذه الفسيحة التي تطل على تمثال الحرية في ميناء نيويورك.

لكن النوافذ تفصل بينه وبين البحر هناك وأخذ يحدّث نفسه بغضب مفاجئ بأنه يفكر بهذا الشكل لأنه لم يأخذ إجازة قط. عليه أن ينسى ذلك ويدع عنه العواطف فهو يعلم إلى أين تقوده... وهو لا يريد أن يصل إلى ذلك.

واستلقى على الرمال وأغمض عينيه، ثم انتفض وجلس متأهباً. سيراقب فقط.

كانت سبّاحة أسطورية.

خرجت سوزي من الماء ضاحكة بابتهاج، وقد تملكها السرور. سترحل عن هذا المكان لكن ذكراه ستبقى في قلبها إلى الأبد. ومن هذه الذكريات، أحداث هذا اليوم.

رفعت بصرها إلى الشاطئ فرأت هاميش يراقبها.

لقد انتهت نزهتها وحان وقت العودة.

سارت نحو الشاطئ، فنهض ليقابلها حاملاً لها المنشفة. ترددت لحظة... إذ بدت لها هذه اللفتة حميمة للغاية.

لكن هذا غباء، فهي لا تعني شيئاً. كم من المرات فعلت كيرستي

الشيء نفسه؟ أخذت منه المنشفة وغطت بها وجهها لئلا تضطر إلى النظر إليه.

قال برقّة: «إنه أحسن شاطئ في العالم».

فتركت منشفتها تسقط على كتفيها وحاولت أن تبتسم: «أحقاً؟»

- ستكرهين الرحيل عنه.

- هذا صحيح. لكنني استمتعت به أكثر من عام، وقد حان الوقت ليستمتع به شخص آخر أو حتى أكثر من شخص. كل الذين سيأتون إلى فندقك.

- بيعه هو الحل المناسب.

- فعلاً.

- هل ستكونين على ما يرام؟

- سأكون بأحسن حال. شكراً لرعايتك ابنتي.

- لم أتولى رعاية طفل من قبل.

- أليس لديك أسرة؟

- لم يكن لي أخوة أو أخوات ما عدا ابن خال معوّق.

- أظن أنّ الولد الوحيد في الأسرة أمر فظيع. أما التوأم فشيء رائع.

فكر في ذلك، ثم نظر إلى ابنتها النائمة. طفل وحيد آخر؟

قالت بحزم: «سأحيطها بالأطفال».

أما كيف ستفعل ذلك، فهذا ما لا تعرفه. إنها عائدة إلى الوطن لتنشئ طفلة، وتعمل. ولن تدع هذا كله يهزمها.

- هل أختك هنا؟

- نعم.

- ألديها أطفال؟

- نعم.

- لماذا لا تبقين هنا؟

- وأعتمد على كيرستي بقية حياتي؟ لا. شكراً.

- يمكن أن تكون الاستقلالية صعبة.

- أظنك أستاذاً في هذا المجال. بدأت أتعلم لتوّي لكنني سأستطيع تدبّر أموري.

شرع يقول: «سوزي...» عندما اخترق السكون صوت محرّك فالتفت ليرى زورقاً صغيراً قرب الخليج.

بدا راكبا الزورق مبتهجين بشكل واضح. وكانا متجهين نحوهما مباشرة.

عندما وصلا إلى مرمى السمع، وقف الرجل وناداهما قائلاً: «مرحباً. هل يمكننا أن ننزل على هذا الشاطئ؟ هل فيه صخور؟»

فصاحت سوزي ترد عليه: «لا يوجد صخور».

والتفتت إليهما المرأة باسمة وقالت: «مرحباً»

إنهما أميركيان، كما خطر لسوزي. لقد بدأ الأميركيون يغزون هذا المكان. وردّت عليهما التحية. ما بينما لم ينطق هاميش بكلمة. قالت المرأة وهي ما زالت تبتسم: «نريد فقط أن نلتقط لكما صورة، فأنتم تبدون رائعين. قلتُ لألبرت إني أحب أن آخذ لهما صورة، لأنكما تذكرانني كثيراً بما كنا عليه في سنكما...».

وبهتت ابتسامتها قليلاً: «لا مانع لديكما.. أليس كذلك؟ ألبرت مصوّر ماهر».

بدا الخجل على ألبرت فيما تابعت المرأة: «نحن في أستراليا لأسبوع واحد فقط، وقد قلت إنني لن أعود إلى العمل قبل أن أتعرف إلى أستراليين حقيقيين. على أيّ حال، هل يمكننا أن نأخذ لكما صورة؟»

فقالت سوزي وهي ترمق هاميش الصامت بنظرة: «همم.. ما

الشيء نفسه؟ أخذت منه المنشفة وغطت بها وجهها لئلا تضطر إلى النظر إليه.

قال برقّة: «إنه أحسن شاطئ في العالم».

فتركت منشفتها تسقط على كتفيها وحاولت أن تبتسم: «أحقاً؟»

- ستكرهين الرحيل عنه.

- هذا صحيح. لكنني استمتعت به أكثر من عام، وقد حان الوقت ليستمتع به شخص آخر أو حتى أكثر من شخص. كل الذين سيأتون إلى فندقك.

- بيعه هو الحل المناسب.

- فعلاً.

- هل ستكونين على ما يرام؟

- سأكون بأحسن حال. شكراً لرعايتك ابنتي.

- لم أتولى رعاية طفل من قبل.

- أليس لديك أسرة؟

- لم يكن لي أخوة أو أخوات ما عدا ابن خال معوّق.

- أظن أنّ الولد الوحيد في الأسرة أمر فظيع. أما التوأم فشيء رائع.

فكر في ذلك، ثم نظر إلى ابنتها النائمة. طفل وحيد آخر؟

قالت بحزم: «سأحيطها بالأطفال».

أما كيف ستفعل ذلك، فهذا ما لا تعرفه. إنها عائدة إلى الوطن لتنشئ طفلة، وتعمل. ولن تدع هذا كله يهزمها.

- هل أختك هنا؟

- نعم.

- ألديها أطفال؟

- نعم.

- لماذا لا تبقين هنا؟

- وأعتمد على كيرستي بقية حياتي؟ لا. شكراً.

- يمكن أن تكون الاستقلالية صعبة.

- أظنك أستاذاً في هذا المجال. بدأت أتعلم لتوّي لكنني سأستطيع تدبّر أموري.

شرع يقول: «سوزي...» عندما اخترق السكون صوت محرّك فالتفت ليرى زورقاً صغيراً قرب الخليج.

بدا راكبا الزورق مبتهجين بشكل واضح. وكانا متجهين نحوهما مباشرة.

عندما وصلا إلى مرمى السمع، وقف الرجل وناداهما قائلاً: «مرحباً. هل يمكننا أن ننزل على هذا الشاطئ؟ هل فيه صخور؟»

فصاحت سوزي ترد عليه: «لا يوجد صخور».

والتفتت إليهما المرأة باسمة وقالت: «مرحباً»

إنهما أميركيان، كما خطر لسوزي. لقد بدأ الأميركيون يغزون هذا المكان. وردّت عليهما التحية. ما بينما لم ينطق هاميش بكلمة. قالت المرأة وهي ما زالت تبتسم: «نريد فقط أن نلتقط لكما صورة، فأنتم تبدون رائعين. قلت لألبرت إني أحب أن آخذ لهما صورة، لأنكما تذكراني كثيراً بما كنا عليه في سنكما...».

وبهتت ابتسامتها قليلاً: «لا مانع لديكما.. أليس كذلك؟ ألبرت مصوّر ماهر».

بدا الخجل على ألبرت فيما تابعت المرأة: «نحن في أستراليا لأسبوع واحد فقط، وقد قلت إنني لن أعود إلى العمل قبل أن أتعرف إلى أستراليين حقيقيين. على أيّ حال، هل يمكننا أن نأخذ لكما صورة؟»

فقالت سوزي وهي ترمق هاميش الصامت بنظرة: «همم.. ما

رأيك، يا حبي؟».

فضحك. حاولت أن تلفظ هذه الكلمة الأخيرة بلهجة أسترالية لكنها لم تفلح. وقال: «ولِمَ لا، يا عزيزتي. إننا بحاجة إلى مثل هذه الصور لنريها للأطفال عندما يكبرون».

كادت تختنق بالضحك، وبدا الشك فجأة على وجه ألبرت: «ربما لديهما آلة تصوير، يا عزيزتي».

فقالت سوزي: «يسرنا جداً أن تلتقط صورتنا».

فقالت المرأة: «هل يمكنك أن تحتضنها؟ لا أظنك تودّ أن ترفع الطفلة؟»

فقالت سوزي: «لقد نامت الطفلة لتوها».

لكنها عادت فضحكت ومالت إلى الأمام، ورفعت الكلب المبلّل والمغطى بالرمال ودفعته بين ذراعي هاميش: «هيا يا عزيزي، احتضن الكلب».

- شكراً يا حبيبتي.

فقال الرجل: «قف خلف الطفلة، وبهذا نجمعكم جميعاً في الصورة. والآن، احتضن زوجتك».

- إنها ليست...

فقاطعته سوزي: «احتضني يا حبيبي. أنت تحب ذلك».

احتضنها. وقف على الشاطئ والكلب بين ذراعيه، وروز نائمة عند قدميه، والمرأة مندسّة فيه وذراعه من حولها. وابتسم لآلة التصوير وكأن هذا كله حقيقة.

وخطر له أن مارسيا لو رأته الآن لظنت أن لديه توأماً يشبهه. إذ لا يمكن أن يكون هذا الرجل المعروف بالتحفظ والجد، هاميش دوغلاس الذي يُفترض أن يكون الآن في مكتبه.

وبدلاً من ذلك... كانت سوزي تستند إليه فشعر ببرودة جسدها

المنعشة على جسده.

كانت أنوثتها مكتملة. واشتدت ذراعه من حولها فشدته هي إليها بذراعها الحرة. ابتسم لآلة التصوير، وكان هذا جلّ ما استطاع أن يفعله... عليه أن يعود إلى الوطن... أن يعرض هذا المكان للبيع ثم يرحل من هنا....

لماذا يشعر بهذا كله؟

وعاودته صورة أمه وهي تأتي إلى غرفته في ساعة متأخرة من الليل تضع رأسها على سريره وتشهق باكية: «ما كان لي أن أقع في الغرام. لو علمت كم سأتألم، لما أحببته قط... يا إلهي، يا هاميش، الألم...»

تراجع وسقطت يده فتحولت جانباً على الفور. هذا مجرد تمثيل وهو يعلم ذلك، فهي لم تقصد أن تحتضنه... أن تميل عليه وكأنها له.

سألتهما المرأة: «إلى أين نرسل الصورة؟ هل لديكما عنوان؟»

أدركت، حين انفصلا، أن اجتماعهما انتهى. شيء ما في لغة الجسد.

أنبأها بأنهما لن يعودا إلى ذلك الوضع مرة أخرى...

نظرت إليهما سوزي بحيرة بينما قال هاميش بلهجة أسترالية عامية: «بطاقتنا عاطلين عن العمل وننام في المواصلات العامة».

وكان هذا كثيراً على سوزي. لاحظ ضحكتها الموشكة على الانفجار، فحاول أن يمنعها لكن بعد فوات الأوان إذ قالت بلهجة من جُرحت كرامتها: «لسنا عاطلين عن العمل. في الحقيقة نحن لسنا متزوجين. أريدكما أن تعلما هذا».

وأشارت إلى هاميش قبل أن تردف: «هذا اللورد هاميش دوغلاس، «إيرل أوف لوغانيش» وعنوانه هو «قصر لوغانيش. دولفين بي». أما أنا فمن تذكارات القصر، وبستانية، وحارسة الكلب. لكن،

ربما من الحكمة عدم طرح المزيد من الأسئلة».

تبدد التوتر الذي تملكه عندما احتضن سوزي، وشاركها السرور بسخافة اللحظة، والضحك. كان ضحكاً لم يعرفه من قبل.

لقد شعر... بأنه حر.

- بكم تراهن على أنهما سيذهبان إلى مكتب البريد عندما يعودان إلى سيدني؟

- مكتب البريد؟

- إذا ذهبا إلى هناك وقالا إنهما قابلا رجلاً مجنوناً يدّعي أنه لورد، فسيخبرونهما الحقيقة، ما يجعلهما يعودان لالتقاط المزيد من الصور.

- سننسحب إلى ما وراء جدران قصرنا.

فقالت بضحكة قصيرة: «ليت الأمر بهذه السهولة. علي أن أذهب الآن، فأريد أن أقوم ببعض التبليط بعد الظهر».

- وأنا بحاجة إلى وضع بعض اللوائح.

- لوائح؟

- قالت مارسيا إن عليّ أن أدوّن محتويات القصر.

- أكيد.

- حسناً، أظن أن علينا أن نستعد للعودة، فالشمس أقوى مما أطيق.

٥ - مهرجان ووريث

أمضيا بقية النهار وأحدهما يتجنب الآخر. قام هاميش بوضع بعض اللوائح بينما عمدت سوزي إلى حزم بعض أمتعتها، لكن ذهنها بقي مشتتاً...

تناولا العشاء معاً ثم ذهبت سوزي لتنام. غداً سيذهب إلى السوق ويشتري بعض الطعام لكنه تذكر أن غداً هو يوم المهرجان فشعر بانقباض في قلبه قضى على الشعور بالجوع.

إنه في غير بيئته. وقد قالت جودي إن هذه إجازة، لكن ألا تخصص الإجازات للراحة؟ كان النسيم يحمل إليه صوت البحر من نافذته المفتوحة لكن بقية العالم بدا صامتاً. بعد ضجيج مانهاتان بدا له هذا المكان وكأنه عالم آخر.

استلقى وأصغى، ثم قرر أنه اشتاق إلى مانهاتان، إلى بيته... إلى ضجيج حركة السير...

وإلى مارسيا... إلى مارسيا طبعاً...

من تراه يخدع؟ إنه غير مشتاق للوطن. ولم يعرف ما هي حقيقة مشاعره. وأخيراً، استسلم للنوم حيث راودته أحلام كانت فيها مارسيا وجودي وسوزي يترافعن بخشونة من أجله. كانت مارسيا تنظر إليه وازدراء، فيما وقفت جودي ويديها على وركيها في حركة ، أما سوزي فكانت تضحك.

وفجأة، استحال ضحك سوزي دموعاً فاستيقظ مغموراً بعرق بارد.

ولم تعد سوزي في الحلم بل وجدها واقفة عند الباب المفتوح، وهي تحمل بين يديها تنورة، وتقول: «أنظر إلى خادمتك الخاصة، يا سيدي اللورد. تنورتك في انتظار شخصك النبيل».

لم تكن تلبس تنورة مثله، بل سروالاً أبرز مفاتنها الجميلة، وبلوزة صغيرة رائعة ذات مربعات ملونة.

كان شعرها مرفوعاً ومربوطاً بشريطة من القماش نفسه.

سألته: «إلى ماذا تحدق؟»

- إلى القماش ذي المربعات...

- لعلك سيد العشيرة، لكنني أنا أيضاً من أسرة دوغلاس.

فكر ورأسه يدور، في أن هذه المرأة من أقربائه. وحدث نفسه بأن التفكير في الأسرة أمر مخيف.

- لن ألبس هذه.

- لكنك وعدتني. لا يمكنك أن تتراجع الآن، يا سيدي اللورد. كما أنني وعدت بذلك.

- أنت وعدت؟

- حسناً، أنت وعدت أولاً. قلت إنك ستلبسها. لذا اتصلت بمنظم المهرجان، فأخبر الكل أنك ستحضر. كما أن «السمر» سيكونون حرس الشرف لسيادتك.

- «السمر»؟ وما هم «السمر»؟

- لا بدّ أنك سمعت عنهم.

فقال متذمراً: «أنا جاهل للغاية».

ضحكت: «حسناً. لا تطرح الكثير من الأسئلة. ابتسم فقط ولوّح بيدك. أتريدني أن أساعدك على ارتداء ملابسك؟»

- لماذا؟

- حسناً، خطر لي أنك قد لا تفلح في تعليق كيس النقود الضخم

في حزامك من الأمام.

فقال بكبرياء: «الإيرل، ولا سيّما «إيرل أوف لوغانيش» التاسع يعرف كيف يعلّق الكيس».

فقالت ببشاشة: «حسناً إذن».

وتقدمت إلى كرسي بجانب سريره ووضعت عليها الأغراض فيما بوريس يتابع عملها باهتمام.

قالت بابتهاج: «هذا كل شيء، يا سيدي اللورد. هيا بنا يا بوريس»

فقال بلطف: «يمكن لبوريس أن يساعدني».

اتسعت ابتسامتها: «سأتركك مع خادمك الخاص. العصيدة في المطبخ بعد نصف ساعة».

- خبز محمص.

- ستحتاج إلى عصيدة.

فقال بيأس: «خبز محمص. بصفتي قائد العشيرة أطلب خبزاً محمصاً»

فضحكت: «أحب الرجل القوي الشخصية... وهو يرتدي تنورة»

- سوزي...

تحكّمت بملامحها بصعوبة، لكنها عادت وابتسمت ابتسامتها العريضة: «أنا رهن إرادتك، يا سيدي»

استغرق ارتداء الملابس حوالي الساعة. إذا كان سيفعل هذا، فعليه أن يفعله بشكل صحيح. حملق في المرآة، فوجد أنّ مظهره لا يصدق.

وعندما سوّى قبّعته كما ينبغي ونظر إلى النتيجة النهائية، نبح بوريس وكأنه يعلن استحسانه فقال هاميش يخاطبه: «ليت جودي تراني الآن».

ومارسيا؟

لا يمكن لمارسيا ألاّ تتأثر بهذا. لكن جودي هي من خطر في باله، لأنها كانت ستنظر إليه وتصفر ثم تقهقه ضاحكة بصوت خافت.

كما ضحكت سوزي. سوزي وجودي...

امرأتان من غير المحتمل أن تكونا جزءً من حياته فجودي تركت العمل.

وسوزي... بعد أسبوعين ستصبح سوزي ذكرى هي أيضاً، وسيبقى هو مع مارسيا .

وهي تمثل الحياة التي يريدها.

- العصيدة؟

هذه الصيحة من الطابق الأسفل أجفلته، فصاح بعد أن تنفس بعمق: «توست يا امرأة».

خرجت من المطبخ ورفعت بصرها إلى أعلى ثم جمدت مكانها. وأخيراً هتفت: «يا هاميش، سيعشقنك».

- من؟

فقالت ببساطة: «نساء «دولفين بي»، وأنا أيضاً. يا لك من رجل.! هل وضعت كل شيء في مكانه الصحيح؟»

- أظن ذلك.

حاول ألاّ يحمر خجلاً.

- وهل ارتديت الملابس الداخلية المناسبة؟

- إياك أن تتطرّقي إلى هذه الناحية.

وتراجع بسرعة فضحكت بصوت خافت: «لا بأس. لم أر قط قبل مثل هذا البطل السكوتلندي القوي... وقد رأيت أبطالاً».

- أظن أنّ أولئك الرجال أكثر براعة مني في استعمال أسلحتهم. فأنا تافه سطحي.

- بل تبدو عميقاً. والآن، إلى العصيدة أيها السيد.

- سوزي...

- نعم، يا سيدي.

- أظنني كنت واضحاً. أريد خبزاً محمصاً.

فاعترفت قائلة: «ثمة مشكلة صغيرة. لو رأيت ركبتيك من قبل، لاستطعت تركيز أفكاري أكثر. ركبتاك تشغلان البال إلى حد كبير».

وتمنّى لو يخفض تنورته: «وماذا حدث للخبز المحمص؟»

- أحرقت الكثير منه، لأنني كنت أفكر في أنغاس وبريسيللا.

- بريسيللا؟

- إنها بقطينة أنغاس التي ستفوز اليوم بالجائزة. أكبر بقطينة في المعرض. لهذا، لم يبق من الخبز سوى شريحة واحدة، وروز تريدها مع بيضتها.

وتنفست بعمق قبل أن تردف: «هاميش، قد تقول إنك من نيويورك وإنك لست «إيرل» حقيقي ، لكن من يراك الآن يدرك أنك وجدت موطنك هنا. إنك «الإيرل» التاسع أوف لوغانيش، وعليك تتعلم أن تحب العصيدة. والآن، ثمة فرقة من الرجال ستصل بعد عشر دقائق لينقلوا بريسيللا إلى عربة مقطورة... وهكذا، وفّر أنفاسك لتبرد عصيدتك، يا سيدي اللورد».

وابتسمت له بحلاوة مضيفة: «تعال وتناولها، ما دامت ساخنة».

كانت تجربة غير عادية.

أوقفت سوزي سيارتها في موقف السيارات، بينما أخذ هاميش يتلفت من حوله مذهولاً. كان المكان مزيجاً خلاباً من الألوان والأشخاص.

حالما أوقفا سيارتهما، تقدّم المهرج منهما واندفع صادماً القاطرة التي يجرانها وفيها البقطينة.

www.elromancia.com

قالت له سوزي من دون أن يبدو عليها التأثر : «لقد ألحقت ضرراً باليقطينة، يا جيك كامرون. أي تشويه في يقطينتي يجعلها غير صالحة لدخول المباراة».

قال المهرج: «مرحباً يا سوزي. ما أجمل أن أراك».

والتفت إلى هاميش الذي شعر بتحسن غامض لأنه ليس الوحيد الذي يرتدي ملابس سخيفة: «هاميش»، هذا الدكتور جيك كامرون. جيك هو زوج أختي. وهما طبيبا «دولفين بي»

فقال جيك وهو يخلع قفازه الأحمر: «أنت «الإيرل» الجديد إذن. مرحباً بك في «دولفين بي». هل ترغب في بعض العصير؟»

بدت هذه الفكرة خلاّبة لكن سوزي وضعت يدها على ذراعه: «على هاميش أن يفتتح المهرجان بعد عشر دقائق».

فقال له جيك بعطف: «عليك إذن أن تؤدي واجبك. وعندما تنتهي سيكون العصير بانتظارك».

فسألته جودي: «من المسؤول عن الحالات الطارئة؟»

فقال جيك: «كيرستي هي الطبيبة المسؤولة اليوم. لقد تعهدت بذلك للأشهر القليلة التالية. وهكذا أصبحت أنا رجلاً حراً».

قالت سوزي: «جيك»...

وسكتت. لكن سكوتها عنى شيئاً معيناً: «تعهدت ... هل تعني ما أظنك تعنيه؟؟»

قال جيك وهو يوليها ظهره: «كلا، لم أقل ذلك. عليّ أن أذهب. اعتني بالإيرل».

- سأفعل ذلك.

وبقيت تنظر بشكل غريب إلى صهرها ثم سألته: «أين كيرستي؟»

فقال جيك: «أظنها تتجنب لقاءك. إلى اللقاء».

ثم انطلق مبتعداً.

سألها هاميش وهو يرى السرعة التي انطلق بها المهرج: «ما سبب هذا كله؟»

فقالت سوزي: «إذا كانت... كيف يمكنني أن أرحل إلى الوطن؟ لا، لا بد من ذلك. والآن، حان الوقت لنذهب إلى المنبر».

- هل أنا مضطر لذلك حقاً؟

- طبعاً أنت مضطر. كل منا يقوم بدوره. أنت جزء من هذه الجالية الآن، يا هاميش دوغلاس، سواء شئت ذلك أم أبيت.

كانت كلمته مذهلة.

كانت سوزي محقة، كما رأى، مستحسناً هذا الوقع. إذا فعل أنغاس هذا طيلة السنوات الأربعين الأخيرة، فسيفتقد السكان هذا الاحتفال الصغير بشكل مؤلم... والأسوأ من ذلك هو أن السبب في ذلك هو موت أنغاس.

لقد تغير الزمن. زمن «اللورد» في «قصر دوغلاس» انتهى، وعلى الناس أن يتقبلوا ذلك.

يمكنه، على الأقل، أن يفعل ما اقترحته سوزي عليه. يمكنه أن يقوم بدوره.

عليه أن يلقي كلمة عاطفية بعض الشيء، وليساعده الله.

وأخيراً جاءت الكلمات.

قال: «لا يمكنني أن أحتل مكان عمي أنغاس».

بدأ كلامه بتردد، لكن ثقته بنفسه ازدادت حين رأى ابتساماتهم فتابع: «لا يمكنني أن احتلّ مكان اللورد أنغاس دوغلاس، ولا أريد ذلك. لكن بيت دوغلاس كان مرتبطاً «بدولفين بي» فترة طويلة إلى حد أن هذه الصلة لن تموت أبداً. وطالما «أن قصر لوغانيش» قائم، سنظل نتذكر الرباط بين القصر والمدينة. ستتذكر الصداقة، والمحبة، والأيام الحلوة والسيئة. موت اللورد أنغاس كان حدثاً حزيناً لكنه

عاش حياة سعيدة مع زوجته الحبيبة حيث كانا محاطين بهذه المدينة المليئة بأصدقائهما».

لكن هاميش لم ينهِ كلمته عند هذا الحدّ. وتابع يقول: «إرث أنغاس يبقى في الضحك والصداقة الحميمة، التي أراها هنا. كان أنغاس ليرغب في... كان أنغاس ليصرّ على... أن تستمر تلك الحياة، وأنا أيضاً. وهكذا أنا، هاميش دوغلاس، «إيرل أوف لوغانيش» التاسع، أصدر هذا المرسوم العام الأول، وهو افتتاح هذا المهرجان رسمياً، وعلى كل واحد هنا أن يستمتع بوقته إلى أقصى حد. وبعد صدور الحكم في مباراة أكبر يقطينة... وبصفتي اللورد دوغلاس، أصدر مرسوماً يقضي بأن يحمل كل واحد هنا، إلى بيته، شريحة من اليقطينة. وبهذا لن أضطر لأن أعيش على فطائر اليقطين بقية حياتي».

ها قد فعلها... وارتفع الهتاف والتصفيف، وتصاعد الضحك. وعادت الموسيقى تعزف ونزل هاميش عن المنبر ليجد سوزي تبتسم له من خلال دموعها.

- هاميش، كان هذا رائعاً.

- لا حاجة بك إلى البكاء.

واستدار مبتعداً. رباه... هو نفسه على وشك البكاء.

كان السرور يتملكه، لكن الدموع بددت ضحكته، فهي تفعل به هذا دوماً، تصدمه بالواقع الكئيب. كانت الدموع سخيفة. والآن، أصابته سوزي بعدوى البكاء..

وصاح شخص ما: «الحكم في مباراة اليقطين. نحن ننتظر الحكم على يقطينة دوغلاس».

جفت دموع سوزي على الفور وهي تستدير نحو سيدة قربها: «هاريت، هل يمكنك أن تأخذي روز لحظة؟»

وأعطتها طفلتها. بدا أن روز تعرف مديرة مكتب البريد التي توقف يوم وصوله ليسألها عن الطريق إلى القصر.

- هيا بنا، لدينا موعد مع القدر... الآن.

وأمسكت سوزي بيد هاميش تجره عبر الجموع الذين كانوا يبتسمون لرؤيتهما ويفسحون لهما الطريق.

نالت يقطينتهما الجائزة، وجاءت في المرتبة الثانية يقطينة رجل عجوز لم يبد عليه أيّ استياء لخسارته.

عندما تسلمت سوزي المتوهجة الوجه الجائزة التفت الرجل العجوز إلى هاميش فيما سالت دمعة على خده.

مزيد من الدموع! وأمسك بيد هاميش يهزها: «كان عمك أفضل رفيق يمكن أن يحظى به المرء. كان يعلم أنه سيهزمني هذه السنة. إنني أفتقده».

نزلت سوزي عن المنبر وهي تحمل الجائزة والشهادة. «أريد منديلاً».

أعطاها هاميش منديله، ثم حمل عنها الجائزة ريثما تمسح أنفها وقال بفتور: «لا أريد استعادته».

فابتسمت من خلال دموعها: «آسفة. أعرف أن الرجال يكرهون الدموع. لكن «بن»...»

وأشارت إلى حيث توارى الرجل العجوز فقال هاميش: «كان يبكي هو أيضاً».

- خالتي سوزي! خالتي سوزي!

تصاعد هذا النداء من خلفهما فالتفت هاميش ليرى طفلتين تركضان نحوهما. كانتا صغيرتين وقد لُطخ وجهاهما وثيابهما بالآيس كريم. وعندما وصلتا إليهما، هتفتا وهما تلهثان: «خالتي سوزي. لدى ماما طفل لك».

- طفل؟

جمدت سوزي في مكانها وقد شحب وجهها: «عرفت هذا... عرفته...»

فسألها هاميش: «ما الذي يحدث؟»

- إنها حامل... لقد عرفت...

وانضمت امرأة إلى الطفلتين هي نسخة عن سوزي. كان شبهاً غير عادي ما جعله يطرف.

سألها لأن سوزي عادت إلى مواراة وجهها خلف المنديل: «أظنك كيرستي».

- نعم أنا كيرستي.

ووضعت في يده يداً هادئة ثابتة، وابتسمت ابتسامة كابتسامة سوزي. لا... ليست بمثل جمال ابتسامة سوزي.

وكان هذا غباءً منه، فهذه المرأة على الأقل لا تبكي.

سألته: «لماذا تبكي سوزي؟»

بدا عليه السخط: «لأن يقطينتها فازت بالجائزة».

توقع اضطراباً مماثلاً، لكن، بدلاً من ذلك، تركت كيرستي يده وتحوّلت إلى أختها تحتضنها: «حبيبتي، أنا آسفة لأنه لم يستطع أن يرى...»

فقالت سوزي وهي تشهق عالياً: «بل رأى. كان يعرف. أخبرتك. تسللت إلى حديقة بن قبل أن يموت أنغاس وأخذت قياس اليقطينة، فعلم أنغاس أن يقطينته ستربح. وأراهن على أنه يرانا الآن».

- لماذا إذن...؟

- التوأم... إنهما تقولان... ثمة طفل.

سقطت ذراعا كيرستي، وبدا عليها السخط، وقالت: «كانتا تعنيان الجرو».

خفضت سوزي المنديل عن وجهها ونظرت إلى أختها من فوقه بحذر: «ماذا تعنين؟»

فأشارت كيرستي إلى خلفها: «نريد أن نستعيد بوريس، لكننا قررنا أنك تحتاجين كلباً».

وتقدّم صبي صغير يحمل... ماذا يحمل؟ كلباً صغيراً...

وكان أغرب كلب رآه هاميش. سألتها سوزي بحذر: «ما هذه؟»

- هذه هديتنا لك، كي لا تبقى روز الولد الوحيد. أنا وجيك راقبنا الجروة جيداً، وخطر لنا أنك إذا كنت تصرين على السفر إلى أميركا فأنت بحاجة إلى ما يذكرك بنا، ويحرسك. وما هو أحسن من الكلب؟ وقد قيل لي إنه من الممكن أن تأخذي الكلب مباشرة من هنا إلى أميركا، وسندفع أنا وجيك كلفة هذا.

بدا عرفان الجميل البالغ على ملامح سوزي: «أواه، يا كيرستي...»

قال هاميش بيأس: «لم يعد لدي مناديل».

فقالت كيرستي بشاشة: «مع سوزي، أنت بحاجة إلى حمولة عربة من المناديل. ما رأيك يا سوزي؟»

قال هاميش بفتور: «أظنني أسمع نداء العصيدة، هل جيك في خيمة الطعام؟»

ضحكت كيرستي: «إننا جميعاً عاطفيون، أليس كذلك؟ لكن الكلمة التي ألقيتها...».

قالت هارييت وهي تشق طريقها بين الجموع: «سوزي، أظن أنّ ابنتك بحاجة إلى تغيير حفاظ».

كان هاميش قد أولاهن ظهره، لكن حين سمع هذا القول أسرع في سيره وهو يقول: «إنني أسمع نداء العصيد».

لكن هارييت لم تدع هاميش يهرب فهتفت: «يا لهذه الملابس».

ودفعت روز إلى أمها ثم وضعت ذراعها حول كتفي هاميش وابتسمت له ابتسامة عريضة وصاحت بانتصار: «انظروا إليّ... أنا ولورد هاميش. فليأخذ أحدكم صورة لنا لأعلّقها على جدار مكتب البريد».

- أنا بحاجة إلى...

- لكن لست أنا من ينبغي أن تقف معها.

وابتعدت هاريت عنه ثم دفعت سوزي نحوه قائلة: «ينبغي أن تكوني أنت. ألا يعني هذا شيئاً؟ اثنان من آل دوغلاس وجدا مكانهما أخيراً، جنباً إلى جنب».

كادت سوزي تختنق. لكن لم يكن لها رأي في الموضوع إذ دستها الأيدي إلى جانب هاميش، وابتدأت آلات التصوير تلتقط الصور. كما حدث لهما في الأمس على الشاطئ ولكن بشكل أسوأ.

قال هاميش بلهجة أرادها حذرة موزونة لا تنمّ عن توتر الأعصاب الذي كان يشعر به: «علي أن أبحث عن جيك».

وصمت لحظة ثم تابع: «أظن أنه من الحكمة أن أضع حداً لكل التكهنات عنك و... عني وعن سوزي منذ الآن. إنني مرتبط بسيدة تدعى مارسيا بنيل، وستصل إلى هنا بعد غد».

٦- أنا لا أبكي

أمضى هاميش بقية النهار في التعرّف إلى السكان. كانت سوزي محقة حين قالت إن حضوره سينسي الجميع خسارتهم. لم يسمع الضجة التي أحدثها حضوره وحسب بل شعر بها. كانوا يتهامسون عنه، ويتحدثون عنه، ويراقبونه...

قال يحدث جيك: «أريد أن أخلع هذه التنورة. فالكل يحدّق إلى ركبتي».

- إنهم يحدقون إليك كذلك. لكن لا تقلق فأنت لا تنتعل حذاءً أحمر اللون.

- أخبرتني سوزي أنك كنت جراحاً في العاصمة قبل أن تتزوج، فما الذي جعلك تنتقل إلى هنا؟

فأجاب جيك: «الحياة».

نظر هاميش إلى المعرض، وارتجف: «هذه ليست فكرتي عن الحياة».

- وما هي فكرتك عن الحياة؟

- التحكم في الأمور. أنا أعرف عندما أستيقظ كل صباح، لماذا استيقظت.

فقال جيك: «وأنا أيضاً أعرف ما الذي أستيقظ من أجله كل صباح. الجلبة والفوضى، لن أحظى بمثل هذا بأي طريقة أخرى».

فقال هاميش باكتئاب: «إننا مختلفان».

www.elromancia.com

ثم خطر له موضوع آخر: «ما الذي جعلك تعطي سوزي كلباً؟ أليس لديها ما يشغلها؟ عليها أن تعثر على مهنة في أميركا. فكيف تشغل نفسها بكلب؟»

فقال جيك ضاحكاً: «القلب يتسع لكل قادم. أنا طبيب، وهذا نوع من التشخيص الطبي».

فقال هاميش بحدة: «هذا صحيح. سوزي تتحمّل الآن مسؤولية كلب مهجن ستحبه سواء شاءت أم أبت».

- الحب ليس كالإعالة، إنه يختلف عنها قليلاً. صحيح أنه يعني مزيداً من العمل، ولكن...

- أتريد أن تخبرني بأن ثمة مصلحة حقيقية في تربية كلب؟

- كيرستي هي أختها التوأم. وإذا قالت إن أختها بحاجة إلى كلب فهي بحاجة إلى كلب. إنها وحيدة للغاية.

- الكلاب ليست علاجاً للوحدة.

- إنها تنفع. على أيّ حال، لم يكن الكلب قراري. قالت كيرستي إنها فكرة جيدة والوقوف بين التوأم أشبه بشق البحر الأحمر. إنهما لا تنفصلان.

- لكن سوزي سترحل إلى وطنها.

قال جيك وهو ينظر إلى هاميش متأملاً: «هذا صحيح».

وبعد حين، قال هاميش بلطف: «إذا بقيت تنظر إلي بهذا الشكل، فسأخرج من هنا وأسير حتى أصل إلى أميركا».

فضحك جيك وردّ: «هذا عدل. إذن فقد واجهت محاولات لتزويجك؟»

- قليلة. كان الكل في المعرض يردد: (ألن يكونا زوجين مثاليين؟؟)

- حسناً، سيكون هذا مثالياً فعلاً.

- لكني أحب في المرأة انضباط المشاعر والمهارة والهدوء والجرأة.

- سوزي ماهرة وجريئة.

- أريد المزايا الأربع مجتمعة. أنا مرتبط بمارسيا التي ستصل بعد غد.

رفع جيك حاجبه وراح يتأمله ثم قال ضاحكاً: «هذه أول مرة أسمع فيها هذا الكلام، ولكن هذا ليس من شأني. لدي مئتي بالون عليّ أن أوزعها قبل أن أنهي عملي، ولديّ ثلاث نساء سيذقنني المرّ إن لم أفعل.

- مارسيا لن تذيقني المرّ من أجل بالون.

فقال جيك: «أنت محظوظ أو غير محظوظ. هذا يعتمد على الطريقة التي تنظر فيها إلى الأمر. سأتركك الآن إلى اتصالك الهاتفي البالغ الأهمية».

- اتصالي...

- إذا كانت مارسيا ستأتي بعد يومين، أليس من الأفضل أن تدعها تعلم؟

ما هذا المكان؟ لقد هبط وسط أناس فوضويين يظنون أنهم يعرفونه لأن اسمه دوغلاس وأنهم يعرفون عن حياته أكثر مما يعرف هو.

يا للسخافة! لكن جيك قال إنه بحاجة لإجراء اتصال... وهو محق.

وأجابت مارسيا على الفور: «كيف يسير التقييم؟»

- أنا مشغول قليلاً عن ذلك. لقد فازت يقطيتنا بالجائزة الكبرى.

ساد الصمت للحظة، ثم قالت: «حسناً، تهانيّ. هاميش، هل أنت بخير؟»

- هل أنت مشغولة جداً جداً حالياً؟

www.elromancia.com

- أنا دوماً مشغولة جداً جداً.
- وإذا تركت كل شيء وجئت إلى هنا...؟
- ولماذا أفعل ذلك؟
- الأرملة.

لا بد أن اليأس في صوته بدا واضحاً لأنه سمع ضحكاً: «حبيبي... أنت الوارث وهي أرملة اللورد، فهل من محاولة للجمع بينكما؟»

- ليس من ناحيتنا. أعني... هي لا تريد ذلك أكثر مما أريده أنا. لكن سكان المدينة يريدونه.
- يمكنني أن أخصص لك ثلاثة أيام. ثمة مؤتمر مالي في هونغ كونغ يبدأ يوم الجمعة وأرغب في حضوره.
- وهذا يعني...
- سأكون عندك يوم الاثنين وأغادر يوم الخميس. هل يحلّ هذا مشاكلك؟

نظر من حوله فرأى بنت جيك تتقدّم منه حاملة شطيرة سجق. كانت تبتسم له وهي تقدّمها له وكأنها هدية رائعة حقاً.

مارسيا هنا؟ عليها أن تأتي فهو بحاجة إلى أساس يستند إليه وبسرعة.

وقال لها بضعف: «هذا عظيم».

- سأعلمك بالترتيبات. هل من شيء آخر الآن؟ فأنا مستعجلة.
- كلا.
- وداعاً إذن.

قال للفتاة وهو يأخذ منها الشطيرة: «مارسيا قادمة».

فمنحته ابتسامة استغراب: «هل مارسيا ظريفة؟»

- ظريفة جداً.

- تقول خالتي سوزي إن عليك أن تأتي. قطع الأخشاب يوشك أن يبدأ. وعلى اللورد أن يفتتحه.

قطع الأخشاب هو ما كان ينقصه. كانت يداه لا تزالان تؤلمانه من الحفر، لكن منظر الأشجار الضخمة عنى أن بإمكانه أن يجد متنفساً لغضبه واكتئابه بطريقة لا تضر أحداً.

افتتح هاميش الاحتفال ثم أخذ يراقب أبطال القطع بما يشبه الحسد. فيما راح سكان مدينة «دولفين بي» يراقبونه، ويتحدثون عنه، وينظرون بطرف عيونهم إلى سوزي.

وعندما بدأ العمل بشكل جاد، خلع ثيابه حتى الخصر، وتقدم لتقطيع الخشب.

تمتمت كيرستي: «ثمة شيء ما في رجل يلبس «تنورة»».

ثم وكزت أختها وأردفت: «ما أروع جسده، سيدنا الجديد هذا».

أجابتها سوزي بحدة وهي تلهث قليلاً: «إنه ليس سيدنا الجديد. السيد الجديد لا يبيع قصره ويهرب».

- إنه لم يبعه بعد، ثمة الكثير من...
- اخرسي، يا كيرستي.
- إنه رائع، يا سوزي.
- كيرستي، إنه مرتبط.
- إذن، فقد لاحظت أنه رائع؟
- أنا لست عمياء لئلا ألاحظ ذلك.

قالت كيرستي مفكرة: «التنورة جذابة جداً، لا أدري إذا كان جيك يرضى بأن يرتدي واحدة».

قال جيك من خلفهما قبل أن يحتضن زوجته: «أنا جذاب بما يكفي بدون تنورة».

كان جزء منها يشعر بغيرة حقيقية من أختها وزوجها. لقد تعرفت

إلى رودي وأحبته لكنها عاشت معه فترة قصيرة ثم رحل، وخسارتها له ما زالت تؤلمها إلى حد تكاد لا تستطيع احتماله. ومشهد أختها وزوجها بهذه السعادة...

وعادت عيناها، بشكل لا إرادي، إلى هاميش... كان منظره فريداً وهو يقطع الخشب.

وتذكرت ما كان عليه صباح أمس وهو يحفر الممر بالطاقة نفسها. ما الذي يجعله يفعل ذلك؟ ما شكلها مارسيا تلك؟

لكن هذا ليس من شأنها. فجأة قالت: «أنا ذاهبة إلى البيت. أظن أنه من الأفضل أن أخذ الجروة إلى البيت الآن وأجعلها تستقر في بيتها الجديد حتى لو كان بيتاً مؤقتاً».

- سوزي، هل تهتمين بالجروة؟

- أنا أحبها.

- لكن هل لديك مانع في أن يستلم هاميش كل شيء؟

هزت كتفيها: «حسناً، لن يكون ذلك سهلاً عليّ».

- لو أنكما تتفقان معاً...

- إننا متفقان.. لكن مهما اتفقنا، فما زال يريد أن يبيع القصر. إنه التصرّف المنطقي الوحيد. هل يمكنك أن توصلني إلى البيت يا جيك؟

- بكل تأكيد. إذا كنت حقاً تريدين الذهاب.

* * *

لقد انتصر.

انتصب هاميش، ثم أخذ يلهث حتى استعاد أنفاسه. كان هذا رائعاً، أحسن من أي رياضة مارسها. كانت الشمس تحرق بشرته فيما تعالى هدير التصفيق من حوله. كانت يداه تؤلمانه كثيراً. وشعر وكأنه في مكان آخر، في زمن آخر، في حياة أخرى.

لقد انتصر.

التفت إلى حيث كانت سوزي واقفة، فلم يجدها: «أين...؟»

وتقدّم منه جيك يهز يده: «مبروك...»

جذب يده بجهد: «أين سوزي؟»

- ذهبت إلى البيت.

وفجأة، شعر بيديه تؤلمانه حقاً حقاً.

كان هذا غباء...

لم يعد هاميش إلى البيت للعشاء، ولم تهتم سوزي.

وجلست على الكرسي الهزاز أمام النار تحتضن الجروة.

- لست واثقة من أنكما، أنت وروز، مستكفيان لصحبتي.

استمرت سوزي في هز مقعدها، وهي تضيف: «عليّ أن أذهب إلى الوطن».

- أليس حديثك مع نفسك أول دليل على الجنون؟

قفزت واقفة. وعندما عادت إلى الواقع كانت تلهث مستاءة: «ماذا تظن أنك فاعل؟»

قال هاميش: «عائد إلى البيت».

- لقد أخفتني.

- آسف.

قالت بنبرة دفاعية: «إنه مطبخك».

وتمالكت نفسها وخففت من لهجتها لتضيف: «هل تناولت العشاء؟»

بدا أشعث متعباً ومنهكاً، أشبه بلورد سكوتلندي يعود إلى بيته بعد معركة ضارية.

قالت شبه لاهثة: «ثمة بقعة من حلوى التفاح على خدك».

فقال بابتسامة عريضة: «لقد استمتعت بوقتي».

- ألا يشبه عملك في «مانهاتن؟»

- لا يشبه مانهاتن على الإطلاق. لم أعرف يوماً كهذا في حياتي.

- أتريد تناول العشاء؟

- هل تمزحين؟

وقف عند عتبة الباب، ضخم الجثة، أشعث الشعر.

بدا... بدا... وحدثت نفسها بيأس بأن تكفّ عن ذلك، وألاّ تنظر إليه!

قال وابتسامته العريضة تثير في قلبها مشاعر لا تفهمها: «كنت أصدر حكمي على الطهي».

- ما الذي جعلك قاضياً؟

فقال بحكمة: «إنها التنورة. أي شخص يرتدي تنورة كهذه عليه أن يعرف الكثير عن الطهي. الكثير عن كل شيء، في الواقع».

- مثل الحكم على المهارة في تحضير الفطائر.

- هذا ضمناً.

وفجأة ضحكا كأحمقين وتغير الجوّ بينهما فأصبح.. مختلفاً.

لم يتملكها مثل هذا الشعور منذ موت رودي. وفجأة، انقطعت أنفاسها. هل هذا خيانة للعهد؟ كلا. إنه شعور بالحرية. كان ذلك أشبه بغيمة كبيرة خيّمت فوق رأسها طيلة سنتين، لتنزاح الآن... فشعرت بأنها غير عادية.

- أليس لديك مانع في حضور مارسيا؟

تمالكت نفسها، وأرغمت ذهنها الشارد على أن يعود إلى الواقع: «طبعاً ليس لديّ مانع. هذا بيتك».

- كان عليّ أن أخبرك

- لا حاجة لذلك. المكان هنا فسيح. كما سبق وقلت لك، يمكنني أن أنتقل من هنا في أي وقت.

- لا أريدك أن تنتقلي.. الآن.

وتساءلت عما إذا كانت تتصرف الآن بتعقل تام.

وقالت مترددة قليلاً وهي تنهض وتسير نحو الباب: «عليّ أن أذهب».

- إلى أميركا؟

- ليس الليلة.

واستطاعت أن تبتسم، لكنها شعرت بغرابة. هذا جنون! هذا الرجل مرتبط بامرأة اسمها مارسيا، ولن تربطها به أيّ علاقة بعد أن ترحل. إنما اليوم... لقد جعلها تبتسم اليوم وجعل الكل يبتسم أيضاً. كانت تدرك مدى الحزن الذي سيشعر الكل به اليوم لو لم يكن هاميش موجوداً.. لقد منح المواطنين هنا شيئاً يتحدثون عنه، ويبتسمون لذكراه حتى لو رحل بعد أسابيع قليلة، حتى لو باع القصر.

وقالت ببساطة: «شكراً».

- شكراً؟

- لهذا اليوم السعيد. كل واحد هنا سرّه أن يكون لديه سيد لهذا النهار.

- هذا من دواعي سروري.

- أحقاً؟

- نعم. هذا أكيد.

وعاودتها تلك المشاعر مرة أخرى. خفقان عنيف في قلبها، أزيز في عروقها، شعور بالعجز.

قالت ببساطة: «تصبح على خير، يا سيدي اللورد».

فأمسك بيدها وأجفل.

كانت لمسة ودودة لكن عندما أخذت يده بيدها وشعرت بالدفء أحست بقوته، وشعرت أيضاً بشيء آخر.

قلبت يده، وعندما رأت راحته تأوهت بنبرة عاطفية. فقال معترفاً: «إنها ما زالت تؤلمني قليلاً»

- هاميش، يداك! كنت مغفلاً. إنهما مليئتان بالبثور من الحفر، ومن استعمال الفأس أيضاً.

- الإيرل ليس مغفلاً.

- بل الإيرل مغفل. كان عليّ أن أعرف أن أنغاس مثلك تماماً.

وهزت رأسها باشمئزاز قبل أن تضيف: «إنها فظيعة».

فقال بضيق: «لا تقولي هذا. حاولت تجاهلها طيلة النهار»

- لماذا كنت تتجاهلها؟ أتنتظر حتى تضعف يداك؟

- لن تضعف يداي.

فقالت وهي تنظر إلى يديه بإمعان: «ثمة عشر بثور في هذه اليد وشظيّة في اليد الأخرى. وهذه شظية أخرى. يا لك من مغفل، سأتصل بكيرستي».

- كيرستي؟

- أختي، أنت بحاجة إلى عناية طبية.

- إذا تحدّثت مرة أخرى عن مدى سوء الإصابة، سأبكي.

طرفت بعينيها وحدقت إليه مذهولة: «أحقاً؟»

- كلا.

- ما كنت لألومك لو فعلت هذا.

- لن أفعل.

- حسناً، أنا أبكي طوال الوقت. مجرد النظر إلى هذه البثور يجعلني أبكي، أيها البطل الكبير.

- بطل؟

- لاستعمالك الفأس مع وجود كل هذه البثور في يديك.

خطر لها وهي تنظر إلى يديه أنه فعل ما طلبته منه فأكل الحلويات

وقطع الأشجار ولفت الأنظار إليه وجعل الناس يتسمون.

- أرجوك ألاّ تبكي.

كان من الخوف بحيث أخذت تحدق فيه وقد ازداد ارتباكها. كان غبياً لكنه رائع. وقد فعل هذا تحقيقاً لرغبتها، وإزاء هذه التضحية الرائعة، ستمتنع عن البكاء وتكون عملية، فقالت متظاهرة بالسخط وليس بالعاطفة: «أنا لا أبكي، اجلس».

- اجلس؟

- سأغسل البثور وأخرج الشظايا ثم أضع صبغة اليود، وسنرى مدى رجولتك. أنت لا تبكي؟ صبغة اليود هذه ستكون اختباراً حقيقياً.

وأخذت تتفحص كل بثرة بعناية قبل أن تنظّفها، كما سحبت شظايا الخشب بملقاط صغير ومسحت مكانها بصبغة اليود.

قالت: «ليتك تملك كرة مطاطية صغيرة لتعض عليها فتساعدك على الصبر على الألم».

نظر إلى شعرها البني المحمّر، مدركاً أنه أبعد ما يكون حتى عن التأوه، فهو لم يكن يفكر في الألم.

ركّزت اهتمامها على يده، وبدت له... غاية في البساطة... ولكن لعلها ليست الكلمة المناسبة. لقد غيرت ثيابها فارتدت سروالاً قصيراً وقميصاً مقفلاً ضيقاً قليلاً. كان وجهها خالياً من أي زينة كما نزل شعرها على عينيها ما منعه من أن يرى ما تفعله بيده.

كانت تفوح منها رائحة ليمون. لعلها اغتسلت مع طفلتها بعد عودتها من المهرجان. وفجأة تصورها تغسل طفلتها... لكن مارسيا قادمة وهو لا يريد أن يجد نفسه في وضع خطر.

ولماذا لا يريد هذا؟

كانت أفكاره بعيدة عن واقعه بحيث طرف بعينيه وكاد يجذب يده

www.elromancia.com

من يدها. وشعرت هي بذلك فرفعت بصرها إليه بقلق. كانت عبارة عن عينين كبيرتين وشعر جعد و... سوزي.

- أحاول جهدي ألاّ أؤلمك.

- أنت لا تؤلمينني

- أنت خبير مالي.

- نعم.

- هل تحب عملك؟

- أظن ذلك.

- هل يحبه حقاً؟ لم يكن واثقاً. هل يسعده؟ لم يسبق أن فكّر في ذلك قط. بدا له هذا مفهوماً غريباً.

فكر في ردة فعل أمه عندما أخبرها بأنه أصبح شريكاً في المؤسسة المالية. لأول مرة لم يرها تبكي بل أغمضت عينيها، وقالت: «الآن، لم يعد القلق يتملكني».

كان ماهراً في عمله وقد أكسبه الكثير، ولم يكن لديه الوقت للتفكير في سواه. وماذا هناك غير العمل ليفكر فيه؟

رائحة شعر سوزي؟ كان هذا كل ما استطاع التفكير فيه حالياً فضلاً عن شعوره بأصابعها تتحرك على يده بحذر. كان شعوراً غريباً بالغ الحميمية.

هل يمكن لمارسيا أن تعتني ببثور في يده؟

ولكن كيف ستصيبه البثور وهو برفقة مارسيا؟ لن يحصل له ذلك.

احتك بساقه العارية شيء بارد نبهه من أفكاره، فنظر إلى الأسفل ليرى الجروة.

شهقت سوزي ووضعت يدي هاميش على ركبتيه برفق، ثم حملت الجروة وقالت لها: «هذا توقيت جيد. هاميش، لا تلمس شيئاً. سأعود»

وخرجت مع الجرو إلى الخارج.

جلس لحظة من دون أن يفكر في شيء. كانت أحاسيسه غير عادية. متى فعل هذا آخر مرة؟ أبداً، فلديه دوماً ما يفعله.

لقد طلبت منه أن يبقى مكانه، ففعل إلى حد ما... سار إلى باب المطبخ وأخذ ينظر إليها وهي تعرّف الجروة على الحديقة.

كانت تقول: «أنا وروز سنكون معك دوماً وسنعثر لك دوماً على قطعة أرض معشبة».

وماذا عن سوق المال؟ ونظر هاميش إلى ساعته متسائلاً عما حصل في السوق المالي في الساعات العشر الماضية.

كانت سوزي راكعة على العشب تدغدغ الجروة التي راحت تتلوّى على الأرض الدافئة من حرارة الشمس.

وتساءل هاميش كيف ستواجه سوزي الصعاب وتتغلب عليها ولديها طفلة وجروة. لديها الكثير مما ينبغي أن تقلق بسببه.

لكنها لم تكن قلقة بل استلقت على العشب، وراحت تقهقه بصوت خافت بينما الجروة تحاول أن تلعق وجنتها. وتناهى إليه صوت روز تثرثر وهي تستيقظ من نومها... لن تتمكّن سوزي من أن تجعل ابنتها تنام الليلة.

لكنه رآها لا تهتم. ليس لديها حس بالنظام.

وفكر في مارسيا حين لا تسير الأمور حسب ما هو مخطط له. ماذا ستفعل مارسيا إذا ما أعطاها جروة؟ ستعيدها إليه على الفور.

أما بالنسبة إلى طفل... مارسيا تنجب طفلاً؟

وجد هذه الفكرة سخيفة فابتسم. رفعت سوزي بصرها ورأته يضحك، فسألته: «ماذا؟»

- ماذا تظنين؟

- أنت تسخر مني.

- بل أسخر من الجروة. روز مستيقظة.

وقفت ثم توجهت إلى الباب، وهي تقول: «لقد نامت ونحن في الطريق إلى البيت ولم ترضَ بأن تستيقظ».

وترددت عندما رأت الجروة تتبعها إلى الباب، فقالت لها وهي تشير إلى العشب: «لم تفعلي ما أنت بحاجة له. ابق أنت هنا معها ريثما أحضر أنا روز».

أومأ ثم وضع قدمه أمام الباب ليمنع الجروة من اللحاق بسيدتها، فجلست تلك على الأرض ثم نبحت.

فقالت سوزي: «تباً! لماذا تحمّلت هذه المسؤولية؟»

فقال هاميش: «أعيديها من حيث جاءت».

اختطفت تافي عن الأرض وحملقت فيه: «يا له من رأي. لا تصغي إليه يا حبيبتي، فأنت لي، ونحن أقرباء».

كان هذا غير طبيعي إلى حد خطير. وتملّك هاميش مشاعر متعددة بحيث لم يعرف ما يفعل.

- لا يمكنك أن تكوني من أقرباء هذه... هذه...

فقالت بحدة وهي تنتصب بقامتها: «يمكنني أن أكون قريبة من أريد. هذه الجروة الرائعة تريدني أن أكون معها في الخارج. فهل يمكنك أن تحضر روز؟»

- ماذا. أحضرها من مهدها؟

- نعم.

- هل أدخل فقط وأحملها؟

فقالت محاولة ألاّ تظهر تهكمها: «أنتم اللوردات شجعان للغاية. إذا رفعتها من المهد، وأطبقت راحتيك، فلن تتأثر بثورك».

لم تكن بثوره ما يخيفه، فقال: «لا أستطيع أن أرفع طفلاً».

- لا تكن سخيفاً. اذهب إليها.

يمكنه أن يقوم بذلك. لا بأس.. ودخل إلى المنزل ثم دفع باب غرفة سوزي وروز ليقف مدهوشاً.

كان السرير فسيحاً مع أربعة أعمدة فخمة وكومة من الأغطية والوسائد المحشوة بالريش والملونة.

أما الجدران فغطتها سوزي بالصور. لم تكن أعمالاً فنية ثمينة، بل صور يبدو أنها أعجبتها.

صور أشجار التقطت من زوايا غريبة، شلالات، وصخور مختلفة الأشكال، وأمواج مزبدة.

وكان أحد الجدران مليئاً بصور فوتوغرافية متنوعة. صورة لبنت صغيرة، صورة لرجل يبدو أنه رودي. زوجان عاشقان.

نظر إليهما وهما يبتسمان لبعضهما البعض، وشعر بانقباض في... لا. لا تنظر. لست بحاجة إلى مثل هذا الشعور. كان من الغباء عرض مثل هذه الصور بحسب رأيه.

لكنه عاد فتراجع عن رأيه. فهي ليست فكرة غبية إذ أحدثت في نفسه تأثيراً عميقاً. إنها أشبه بلوحة ضخمة للحياة، لكل ما تعتز به سوزي.

أعادته إلى الواقع صيحة ساخطة. فرأى روز تمدّ يديها وهي تقول: «أعلى».

ابتسم بضعف فاتسعت ابتسامتها وزادت من مدّ يديها وجسدها: «أعلى، أعلى».

بإمكانه أن يفعل هذا. وضعه يديه تحت ذراعيها ورفعها باحتراس.

أخذت تضحك وأشارت إلى المهد وقالت: «فاظ»؟

فاظ؟! أخذ يفكر في معنى هذه الكلمة، ثم أدرك ما تعنيه.. لا. إنها بحاجة لتغيير حفاظها. وأبعدها عن جسده.. وسار بها إلى أمها لكن صراخها ازداد.

(أنتم اللوردات شجعان للغاية).

سألها: «أين حفاظاتك؟»

فأشارت إلى كومة على جانب المنضدة.

كانت رائحة سوزي في السرير وفي الغرفة كلها.

هاميش دوغلاس، الخبير المالي، إيرل أوف لوغانيش التاسع، غيّر الحفاظ وبنجاح!

كانت سوزي لا تزال تراقب الجروة وهي تجلس على مقعد في الحديقة، تنظر إلى الليل يرخي سدوله على الحديقة..

أعطاها ابنتها فانزلقت هذه إلى الأرض وأخذت، هي والجروة، تتفحصان بعضهما البعض.

نظرت سوزي إلى الجروة والطفلة باسمة، ثم هزت رأسها: «إنهما غير مستعجلتين».

كانت هذه فكرة غريبة جعلته يطرف بعينيه، بينما ألقت سوزي عليه نظرة جانبية ثم أفسحت له مكاناً على المقعد المستطيل وهي تسأله: «أتريد أن تجلس؟»

ولماذا يجلس؟ لمجرد الجلوس؟

- ربما من الأفضل أن أعمل قليلاً في حفر الممر؟

- بيديك المليئتين بالبثور؟ هل جننت؟

- نحن اللوردات شجعان للغاية.

- أنت مجنون إذا عملت بيدين على هذا الحال. كفى، يا هاميش! عليك أن ترتاح.

جلس باحتراس، شاعراً بالغرابة، فيما قالت برقّة فائقة زادت من شعوره بالاستغراب: «أشكرك على هذا النهار».

- لماذا...؟

- لأنك أسعدت الكثيرين، بمجرد وجودك.

- ألأنني كشفت عن ركبتيّ؟

فقالت بصفاء بالغ: «شيء من الجمال هو متعة إلى الأبد».

فغص بريقه: «هذا صحيح».

- صدقني، يا هاميش.

وضعت يدها على ذراعه بخفة. لم تضغط، لكن شعوره بأصابعها على ذراعه كاد يدمره. وزاد الأمور سوءً دفء الليل، وهدوء البحر، والإلفة بين روز وتافي اللتين كانتا تلعبان عند أقدامهما...

- كنت رائعاً..

وفجأة مالت عليه تعانقه بخفة. كان عناق شكر، ليس إلاّ.

لكنه لم يكن كذلك.

الناس يعانقون بعضهم البعض طوال الوقت، كما أخذ هاميش يفكر. وهذا لا يعني شيئاً وما من سبب يجعله يظن أن تياراً كهربائياً قطع كل دورة كهربائية أخرى في جسده.

لماذا؟ ودار رأسه. ما من سبب!

هل حدث هذا لأن سوزي بعيدة كل البعد عن أيّ امرأة عرفها؟ إنها رائحتها.. الشعور بها... إنها رقيقة لذيذة ومرغوبة للغاية.

لكنه عاد يتساءل مصدوماً، إن كان هذا النهار هو المسؤول فهو لم يعرف مثله قط. كما لم يعرف امرأة مثلها قط من قبل.

ثمة آلاف النساء مثلها لكنه لم يعرفهن، كما أنه بعيد عن بيئته المريحة، و....

- هاميش، لم أكن أفكر في إغوائك.

انتفض عائداً إلى الواقع، إلى سوزي التي حدّقت إليه بعينين متأملتين... وربما متألمتين.

- أعرف هذا... الأمر فقط... هو أنني مرتبط بمارسيا.

لعله أخطأ في قوله هذا.

قالت بخشونة: «أعرف ذلك. أنت تظن حقاً أنني أنوي أن أغويك، لمجرد أني أرملة».

- كلا.

فقالت من دون أن تخفي غضبها: «بل هذا صحيح».

وهبّت واقفة، وأخذت تحملق فيه ويداها على وركيها، وهي تنتفض غضباً: «إذا ودّعتك زميلتك وعانقتك متمنية لك إجازة سعيدة، فماذا تظن في ذلك؟»

- لا شيء.

- ولأنني أرملة، ينظر إلي الكل وكأنني أخطط للحصول على الرجل التالي، حتى أنت. وهذا ليس إنصافاً. أحببت رودي أكثر من أي رجل آخر، وأنا لا أبحث عن علاقة أخرى. واستدعاء مارسيا هو مجرد وسيلة لتحمي نفسك... لا تظن أنني لا أدرك ما تفعله يا هاميش دوغلاس. لم تلمّح إلى أن مارسيا قادمة إلا بعد أن أخذت تنظر إلينا وكأننا مناسبان لبعضنا البعض. وهذا غباء غباء غباء!

وانحنت ورفعت روز بين يديها: «تعالي يا حبيبتي، سنحضّر لك العشاء ونترك سيادته هنا في هذه العزلة الرائعة، مطمئناً إلى أن عفّته مصانة من أجل مارسيا الغالية. لكن اعلم أنه حتى لو كان هناك مليون مارسيا... بل إذا لم يكن هناك من مارسيا... فلا سبيل لأن أهتم بك، ياهاميش دوغلاس. أنت تجعلني ببرودة سمكة ميتة».

واستدارت متجهة إلى البيت، بينما بقي هاميش يحدق في أثرها.

كان الصمت يسود المكان. وحتى البحر كان هادئاً.

عليه أن يطلع على بريده الالكتروني... عليه أن....

٧. ما من شيء بأيدينا

تلا ذلك يومان غاية في التوتر حيث تعامل هاميش وسوزي بحذر بالغ.

كانا يذهبان في الصباح إلى الشاطئ. ولماذا لا يفعلان ذلك والشاطئ في منتهى الروعة؟ فقد عشقه كما اعترف بنفسه.

كانت سوزي مليئة بالسخط والشعور بالإساءة. وعندما عرض عليها أن يرعى روز لتتمكّن من السباحة، رضيت بلطف وتهذيب بالغين وكأنها تقدم له خدمة لكنها سارعت إلى البحر وعادت منه، وهي تتجاهله.

قال لها: «لم أقصد أن أجرحك».

- لم تجرحني. لمّحت فقط إلى أنني أراك زوجاً مناسباً لي، وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة. أعتقد أن علينا أن نبقى رسميين مع بعضنا البعض.

وعندما وصلت مارسيا مساء الاثنين، تملكه الارتياح تقريباً. كان متلهفاً إلى أي شيء يخلّصه من هذه التصرفات الرسمية.

وصلت مارسيا مع جيك، الذي ذهب إلى سيدني لحضور مؤتمر طبي فعرض أن يقلّ مارسيا من المطار. وهكذا، وفي الثامنة من مساء الاثنين، خرج هاميش إلى فناء القصر ليستقبل خطيبته.

- مرحباً، يا حبيبتي.

واحتضن قوامها الأنيق وعانقها... ما أدهشها. وعندما تركها،

تراجعت إلى الوراء ونظرت إليه بذهول: «لم يمض سوى أيام على فراقنا».

- لقد افتقدتك.

- هل الأرملة ترانا؟

الأرملة.. مضت دقيقة قبل أن يفهم ما تعنيه... لكنه ما لبث أن أدرك أن مارسيا تظنه يمثل أمام الناظرين.

- هل أعطيت مارسيا معلومات عن فتاتنا سوزي؟

طرح جيك هذا السؤال باهتمام فعبس هاميش: «لم أخبر مارسيا شيئاً».

فقالت مارسيا بنعومة: «أخبرتني فقط أن البلد كلها تتوقع منك أن تتزوجها. كن صريحاً فتمنع حصول أيّ سوء تفاهم».

فسألها هاميش شاعراً باليأس: «هل كانت رحلتك جيدة؟ هل تحدثتما كثيراً؟»

فقالت مارسيا: «لقد نمت طوال الطريق».

ثم التفتت إلى جيك ومنحته أجمل ابتساماتها: «شكراً. أخشى أن أكون قد سببت لك الملل».

فأجاب جيك بأدب: «كلا، على الإطلاق. سأدعكما الآن معاً. أستأذن».

وعندما ابتعد جيك، قال هاميش مقطباً: «كان هذا غير لائق. ألم تجدا ما تتحدثان عنه طيلة الطريق؟».

- إنه طبيب، ولم يكن في قدمي أي ورم لتتحدث عنه.

مارسيا تشعر بالغربة، وربما من الأفضل أن تكون بين أناس من نوعها.

ثم تذكر أنه من نوعها، وأنها المرأة التي اختار أن يتزوجها. إنه أحب مزاجها الهادئ المحنّك... وذكاءها البالغ...

سألته: «أين الأرملة؟»

- في الداخل. سآخذك لتتعرفي إليها.

لكنها بقيت واقفة تتأمل ضوء القمر، والقصر الأسطوري والجبال من خلفه، والشاطئ الخرافي الجمال. وقالت بصوت خافت: «سيباع هذا بمبلغ ضخم. تصوّر قصرك السكوتلندي الصغير من دون ما تحفل به سكوتلندا من أشياء فظيعة مثل الضباب والمستنقعات والذباب و...»

- لا شيء سيء في سكوتلندا.

وأجفل لما لمسه في صوته من حماسة.

فقهقهت عالياً ثم أمسكت بذراعه وقالت بعطف: «أصبحت اللورد لوغانيش الذي يدافع عن أسلافه. في أي لحظة الآن، ستصعد إلى السطح لتعزف على المزمار».

ابتسم ضاحكاً: «كما أنني أرتدي التنورة».

- هذا ما عليّ أن أراه.

- عليك أن تتعرفي إلى سوزي أولاً.

- الأرملة! دعنا ننتهي من القسم المخيف أولاً، ثم نتفرغ للقسم السارّ.

لم يكن التعارف بين سوزي ومارسيا ناجحاً تماماً. حيّت سوزي مارسيا بأدب حذر، فردت عليها مارسيا بالشكل نفسه، وهي تتشبث بذراع هاميش بتملك ومودة. وقالت سوزي لهاميش: «تجد بعض اللحم في الثلاجة يا هاميش إذا كانت مارسيا جائعة. كنت سأطهيه لكن...»

قال وهو يبتسم لها مشجعاً، متمنياً لو أنها لا تبدو متوترة بهذا الشكل: «لكنني أطهوه أفضل منك».

تمنى لو أنه لم يخبر مارسيا بان ثمة مشكلة، ولو أن مارسيا ليست

متشبثة وملتصقة به إلى هذا الحدّ.

- سأخلد إلى النوم إذن.

نظرت مارسيا إلى ساعتها بذهول: «إنها الثامنة فقط».

فقال هاميش: «سوزي تستعيد عافيتها بعد إصابتها».

بعدئذ، تمنى لو لم يقل هذا أيضاً إذ نظرت سوزي إليه غاضبة، ثم قالت: «أنا لا أستعيد عافيتي من الإصابة، فقد شفيت تماماً».

فقالت مارسيا: «لكنك تعرجين».

فعبست سوزي قليلاً، ثم تركتهما وابتعدت قائلة: «نعم، أعرج. هذا هو العيب في شخصي، لكنني أحب ذلك. أنا ذاهبة إلى سريري لأقرأ رواية عاطفية ولا أريد أن أشفى على الإطلاق. هاميش، عليك أن تطوف بمارسيا في أنحاء القصر. وعندما تنتهي... مارسيا هل يمكنك أن تعلميني متى يصل مقيّم أسعار الفنادق؟ عليّ أن أرتب أموري للرحيل. تصبحان على خير».

سألته مارسيا: «أتراني جرحتها؟».

فتنهد: «أظن ذلك... ربما ما كان عليك أن تلمحي إلى مشكلتها».

- ماذا تعني؟ عرجها؟ إنه واضح. لا يمكنها أن تتوقع مني أن لا ألاحظه.

لم تكن هذه هي المشكلة التي تحدث عنها.

وعادت تلتصق به: «أين سننام؟»

- اخترت لك الغرفة المجاورة لغرفتي. تعالي معي.

- أليست غرفتك؟

- كلا. هذا يبدو...

- اسمع يا حبيبي... إذا كانت تريدك فكلما عرفت الحقيقة باكراً، كلما كان ذلك أفضل.

- ليس الأمر كما تتصورين. مارسيا، هذا بيت سوزي وأريده أن يبقى كذلك حتى نرحل. أظن أن غرفتين منفصلتين...

رفعت حاجبيها ببرودة: «حسناً هذا يناسبني. سأشغل الكومبيوتر المحمول فقد خسرت الكثير بحضوري إلى هنا».

استيقظ هاميش في السابعة والنصف، وبقي مستلقياً بكسل على كومة من الوسائد الحريرية يتأمل أشعة الشمس وهي تتسلل من خلال الستائر.

لا بد أنّ مارسيا استيقظت الآن وعليه أن يبحث عنها، لكن أفكاره بقيت تحوم في أماكن مختلفة.

أين جودي الآن؟ سيفتقدها عندما يعود. عندما يرحل من هنا. عندما يترك سوزي...

لكن سوزي هي التي سترحل أولاً.

ربما سيبقى على اتصال بسوزي ليطمئن إلى أنها بخير.

إنها بحاجة إلى شخص ما، رغم أنها تظن نفسها من القوة بحيث تهتم بطفلة وكلب ووظيفة. إنها مصممة على أن تعود إلى عملها السابق في الحدائق، ولكن أي شخص يمكنه أن يرى أن لديها مشكلة جسدية، فساقاها لن تدعماها أبداً.

يمكنه... يمكنه...

لا يمكنه شيئاً. فهذا ليس من شأنه... لكنه رأس العشيرة، لورد أوف لوغانيش، وهذا يدفعه إلى الاهتمام بـ...

بمن تبقى من أفراد الأسرة.

كانت الفكرة جنونية إلى حد أضحكه فألقى بالأغطية ثم توجه إلى الحمام. إنه مغفل. سيذهب إلى مارسيا ويريها هذا القصر المتصدع من أوله إلى آخره، فمارسيا هي بالضبط ما يحتاجه.

كانت مارسيا في المطبخ مع سوزي وروز وتافي.

قالت له سوزي بحذر وكأنها لا تثق بصورتها: «ليس لدينا حليب صويا هنا. لو أعلمتني أن مارسيا تتبع حمية تقوم على خفض النشويات، لأحضرت لها الطعام المناسب».

فقال باحتراس مثل سوزي: «هذا سهل. أعني اللحوم هي قليلة النشويات».

هزت مارسيا رأسها غير مصدقة: «لحمة للفطور؟ أعرني مفاتيح سيارتك يا هاميش، وسأذهب لأحضر ما أريده من السوبر ماركت».

- إنها تبعد خمسة أميال ولن تفتح أبوابها قبل التاسعة. أيمكنك أن تأكلي خبزاً محمصاً؟

فقالت سوزي وهي تضع إناء على الموقد: «السكان هنا يأكلون العصيدة».

فقالت مارسيا بحدة: «نسبة النشويات فيها مرتفعة».

فقال هاميش بضيق: «مارسيا، هذا المكان لم يصبح فندقاً بعد. ولن يضرك أن تهملي حميتك لهذا الصباح فقط».

ابتسمت له تظهر تسامحها: «لا بأس. أنا لست جائعة».

والتفتت سوزي إلى هاميش بعينين كئيبتين: «حضرت كمية كبيرة من العصيدة. هل تريد أن تأكل منها؟»

- نعم، من فضلك.

ورأى اللمعان المفاجئ في عيني سوزي وهي تقول مفكرة: «أخيراً أكل اللورد العصيدة».

- سأعود إلى الخبز المحمص غداً.

- أنا واثقة من ذلك.

بدا الضحك في عينيها الآن. لم يكن يريدها أن تحزن وهو يكره أن يفكر في ما عانته.

وضعت سوزي أمامه صحفة من العصيدة. فأضاف إليها العسل

والقشدة والقرفة، كما رأى سوزي تفعل، بينما أخذت مارسيا تنظر باشمئزاز.

قال لها: «لا تنظري، تناولي القهوة».

فقالت متنازلة: «على الأقل ثمة جهاز لتحضير القهوة».

وأعلنت سوزي: «سآكل في الحديقة».

- هل ستدعينني أساعدك في النزول إلى الشاطئ فيما بعد؟

ترددت ولاحظ نفورها من قبول العون، رغم رغبتها البالغة في السباحة. ثم تمتمت: «شكراً»

شرعت مارسيا تقول: «سوزي...»

لكن سوزي كانت قد أصبحت عند الباب، فأجابت: «لا أستطيع أن أترك روز وحدها».

- اعلمي فقط أني اتصلت بمقيّمي أسعار الفنادق. سيحضرون إلى هنا غداً. هل ستكونين موجودة؟

فأجابت سوزي بعزة: «طبعاً. لقد تعهدت بذلك. وبعد ذلك سأرحل إلى موطني».

استلقت مارسيا على الرمال بثوب سباحة رائع، وراحت تجري اتصالاتها.

ينبغي عليه أن يفعل مثلها، لكنه كان مشغولاً بالنظر إلى سوزي. سبح هذا الصباح أقل من المعتاد، إذ عاد إلى الشاطئ ليبقى بصحبة مارسيا... لكن مارسيا لم تكن بحاجة إلى صحبة. إنها الزوجة المثالية، فهي رائعة وماهرة ومستقلة الشخصية تماماً.

إنها ما يحتاجه بالضبط.

كانت سوزي في الطرف الآخر من الشاطئ، جالسة مع روز في المياه الضحلة. أما الجروة فكانت تنبح بشكل هستيري مع كل موجة قادمة.

واكتشف هاميش، وهو ينظر إلى هذا المشهد، أنه يضحك بصمت.

لكنهما ليستا كاملتين على عكس مارسيا.

ولكن، لِمَ يقوم بهذه المقارنة؟

- سأذهب وأريح سوزي من العناية بطفلتها لكي تتمكن من السباحة.

رفعت مارسيا حاجبيها متسائلة بتهكم: «أنت؟ تعتني بطفلة؟»

فقال متحدياً تقريباً: «يمكنني أن أغير الحفاظ».

اتسعت ابتسامتها: «لو كنت مكانك لما ذكرت هذا في سيرتي الذاتية، فهذا لن يمنحك عملاً في عالمنا».

عالمنا! ونظر إلى هاتفها.

- هل تريد عوناً في العناية بالطفلة؟

- عودي إلى عملك ومعاملاتك. رعاية الطفلة ليست المهنة التي أنوي ممارستها في حياتي. لكني أفعل هذا الآن لأسهّل الأمور على سوزي.

هذا يمنح سوزي فرصة ربما أخيرة للسباحة في هذا المكان؟

- وجاء دوره ليجلس في المياه الضحلة ليلاعب روز بينما سوزي تسبح.

هل من أمواج في المكان الذي ستقصده؟

إنه لا يعلم... ولا يهتم بذلك.

اختفت سوزي فور عودتهم من الشاطئ. ولم يرياها بقية النهار إلا لماماً.

قالت له مارسيا: «ما كان ثمة حاجة لحضوري إلى هنا. لا أظنها مهتمة بك».

- هذا صحيح.

- هل تعلم؟ هذا المكان جميل حقاً، ومن العار أن يباع بهذه السرعة.

فقال: «وماذا يمكنني أن أفعل به؟».

كان قد فكر في الأمر ملياً. فهو ليس بحاجة إلى الفائدة التي ستعود عليه من بيعه. فكر في أن يدع سوزي هنا لرعاية القصر لفترة غير محددة، لكنه أدرك أنها سترفض عرضه. إنها بحاجة إلى الانتقال إلى مكان آخر.

وتابع يقول: «من المؤكد أنك لا تقترحين أن نعيش هنا؟»

- لا. لكني كنت أفكر بأن نجري بعض التحسينات عليه قبل أن نعرضه للبيع. تعال لترى ما أعنيه.

تقدّمته إلى الخارج حيث حديقة سوزي بينما تبعها هاميش شاعراً بارتباك.

كانت تقوده رغم أنه هو صاحب القصر.

لا ينبغي أن يمانع، وهو لا ينوي ذلك. حسناً، هذا بيت سوزي! ولكن هذا غباء. وعندما رأى حديقة سوزي عند الغروب، لم يعد يعتبر فكرته غبية وأدرك أنه على صواب. بدا هذا مكان سوزي من دون شك، وبدت حديقتها خرافية.

في الأشهر الإثني عشر الأخيرة حين كانت صحة أنغاس تتدهور ببطء، لا بد أن سوزي اعتنت بقلبها وروحها بهذا المكان.

لكن مارسيا لم تكن تهتم بالحديقة بل سارت بحزم نحو المستنبت الزجاجي. كان الوقت غروباً والمكان ما زال جميلاً، وقد تصاعدت فيه روائح البرتقال الذهبي الناضج والبرتقال العادي والسماد العضوي الذي تضعه سوزي للنباتات الصغيرة التي بدت في الضوء الخافت أكثر جمالاً.

قالت مارسيا: «هذا ما أحضرتك لتراه. إنه أسطوري».

وتقدم هاميش ليلمس الغصن نفسه الذي لمسته سوزي في أول يوم قابلها فيه. هل هي مخيّلته أم أنه أحس بوجودها هنا؟ هذا المكان امتداد لها تقريباً.

- علينا أن نهدم الجدار الأخير كي نتمكن من أن ندخل الآلات.

طرف بعينيه وقال: «المعذرة. لم أفهم».

- هذا عظيم، ألا يمكنك أن ترى؟

- أرى ماذا؟

- المنظر من هذا الجدار سيجذب السياح وسيمضون معظم أوقاتهم هنا.

- لماذا؟

فقالت بفروغ صبر مبالغ فيه: «بركة سباحة. فكرت في ذلك هذا الصباح عندما كنت على الشاطئ. البحر جميل لكن معظم السياح لا يحبون أن يمضوا الكثير من الوقت هناك»

- لِمَ لا؟

- الرمال تدخل في أجهزة الكومبيوتر هاميش. عندما ذهبنا إلى بيرمودا السنة الماضية، هل أمضينا أي وقت على الشاطئ؟

- ذهبنا لحضور مؤتمر.

- تماماً. كان لدينا ما نفعله. فهل استعملنا الشاطئ؟ كنا الزبائن الذين علينا أن نجتذبهم. الناس الذي يقدّرون الرفاهية الحقيقة. على أيّ حال، أفكر في أن نتخلص من هذه التفاهات قبل أن نعرض هذا المكان للبيع، كما علينا أن نحفر بركة سباحة في هذا المبنى. أترى فائدة جعل هذا المكان بركة للسباحة؟

- كلا.

فقالت بانتصار: «اسمع! أظن أن عليك أن تؤجل البيع لبعض الوقت، ريثما نغيّر هذا المكان. لا أظن أن بإمكاننا أن نقنع الأرملة

بالبقاء للعناية بالمكان في هذه الفترة الانتقالية؟»

- أظن أنّ لا أمل في ذلك.

فهزت كتفيها: «حسناً، لعلنا نحتاج إلى شخص أكثر اتزاناً».

وتعالى رنين هاتفها الخلوي فحدّقت في الشاشة: «المعذرة يا حبيبي. سر إلى النهاية لترى أني على صواب. بركة سباحة مع أروع المناظر. أظن أنّ وجود البحيرة سيضاعف سعر المكان».

ثم ابتعدت وتركته لأفكاره. أفكاره...

وقرر أن ليس لديه أي أفكار. كان ذهنه صفحة بيضاء. عاد يتحسس برتقالته الذهبية وهو يفكر في روعة رائحتها وروعة المكان.

- هل سيقطعون أشجار أنغاس كلها؟

كان صوت سوزي غير متوقع بحيث أوقف دقات قلبه. جمد مكانه محاولاً أن يجد ما يقوله.

خرجت من الظل ووقفت أمامه بقدميها الحافيتين وشعرها المشعث.

- لم أكن أدري أنك هنا.

- كنت أغرس النباتات الصغيرة في أحواض أكبر. هل يفترض بي أن أعتذر؟

كان لا يزال مرتبكاً فقال: «كان عليك أن تخبرينا أنك هنا».

- هل كان عليّ أن أبرز من الظلام قائلة إنني سمعت كل كلمة؟ هذا ما أفعله الآن. ما قالته مارسيا جعلني... ولكن، هذا ليس من شأني.

- هذا صحيح.

إذا كان سيبيع هذا المكان، فلن يستطيع أن ينظر إلى الخلف طيلة الوقت، متسائلاً عما تفكر فيه سوزي.

قالت بحزن: «كان أنغاس بالغ الزهو ببرتقاله».

فتشجع وقال: «ثمة شخص آخر سيزهو ببركة السباحة».

- يبدو وكأن مارسيا هي التي ستزهو بذلك.

- هذا صحيح. سيسرّها أن نحصل على ثمن جيد لهذا المكان.

- لكن... إذا بعت القصر، ألا يذهب المال إلى الأوقاف؟

- بلى.

بما أن القصر جزء من الإرث الذي سيسلّم إلى الإيرل الوارث جيلاً بعد جيل، سيذهب إيراد البيع إلى الأوقاف، لكنه سيحصل على فائدة ضخمة.

سألته: «هل ستنجبان أنت ومارسيا، أولاداً ليرثوا؟»

بم سيجيب عن هذا السؤال؟ قال: «ليس لدي فكرة».

- أعني... هل سيفضل ابنك أن يرث قصراً أم كومة من المال؟

- بالله عليك يا سوزي...

فقالت بحزن: «لكن هذا أسهل، أليس كذلك؟ هذا القرار الذي اتخذته، واتخذته بسرعة فائقة».

- وماذا أفعل بهذا المكان إذا احتفظت به؟

فقالت بعنف مفاجئ: «فكّر على مهل. بدلاً من التركيز على أفضل طريقة لكسب المال فأنت لست فقيراً».

- كلا. لكن...

- لكنك ستقطع أشجار البرتقال الرائعة هذه. الناس هنا يأكلون من برتقال أنغاس طوال فصل الشتاء.

نظر إليها بجمود، فحملقت فيه في عتمة الغسق. لم يستطع أن يرى حملقتها هذه لكنه شعر بها.

- أنت غير مهتم.

- سوزي... علينا نحن الاثنين أن ننتقل من هنا.

فقالت بضيق: «أنا راحلة وأنت ستأخذ أموالك وتعود إلى منهاتن،

ما هي قصتك مع المال؟ لماذا تعتبره بهذه الأهمية؟».

- المال ذو أهمية لكل إنسان.

فقالت بحدة: «نعم، لكن لتوفير الضروريات أو حتى لتوفير رفاهية غير عادية إذا شئت ذلك. لكن مارسيا تقول إن ما تكسبه أكثر من هذا بكثير».

- ليس لمارسيا الحق...

- ولا أنا.

وأدارت ظهرها له، ثم أخذت تقطف ثمار البرتقال وتكوّمها على مقعد خشبي بجانبها، وهي تتابع: «لا بأس. سأدع الحديث في موضوع لا شأن لي به».

- ماذا تفعلين؟

- أقطف برتقالك الذهبي. ماذا يبدو لك أنني أفعل؟

- لماذا؟

أجابت: «إنها رائعة للمربى»

- لكنك لا تحسنين الطهي.

فقالت بكبرياء: «أنوي أن أتعلم ذلك. سأغادر هذا المكان بعد غد، وسآخذ معي بعضاً من مربى برتقال أنغاس الذهبي».

- ستتعلمين تحضير المربى غداً؟

- لِمَ لا؟

لم تكن تخاف. وعاودته فجأة صورتها وهي تسبح في الخليج. امرأة عرجاء تنتشر على جسمها آثار الجراح تغوص في المياه المزبدة، بجسد قوي واثق مصمم.

وهي ناجحة في العناية بالحدائق. إنها بالغة... بالغة...

قطف برتقالتين ليضيفهما إلى كومتها، فتصلب جسمها. كان ظهرها إليه وكأن أمره لا يهمها.

www.elromancia.com

- شكراً. ولكن بإمكاني القيام بذلك بنفسي.
- قلت لتوّك إنك لا تحسنين تحضير المربى.
- ولا أنت.
- عليك أن تحزمي أمتعتك غداً.
- لقد أنهيت حزمها تقريباً.
- عليك أن تسبحي.

توقفت لسماعها هذا. وترددت ثم قالت. «أنا...»

- أتريدين أن تسبحي في آخر يوم لك هنا؟
- طبعاً، ولكن...
- لكنك تريدين أيضاً تحضير المربى. فلنفعل هذا الآن.

خفّ التصلّب في ظهرها والتفتت إليه بحذر: «هل نستطيع ذلك؟»

- أتصور أننا سنحتاج إلى الكثير من السكر وإلى عدد كبير من «الأوعية الزجاجية».
- كيف عرفت هذا؟
- اعتادت خالتي أن تحضّر المربّى.
- هل اعتدت أن تراقب خالتك وهي تطبخ؟
- نعم.

بدا متضايقاً... ورآها مترددة وكأنها ستطرح المزيد من الأسئلة. حدقت إليه، متفحصة وجهه في الضوء الخافت، متطلعة إلى.. لم يعرف ما الذي كانت تتطلع إليه لكنه أدرك أنه لا يريدها أن تجده... أو ظن أنه لا يريدها أن تجده.

كان هذا الحديث عميقاً للغاية بالنسبة إليه. راحت أفكاره تتعقد وبدا حلّها مستحيلاً. وفكر في عنف مفاجئ، في أن يكبح أفكاره هذه، ويتابع عمله. قال: «إذا أردنا أن ننهي العمل قبل منتصف الليل، فعلينا أن نبدأ الآن».

فكرت لحظة، ثم قالت: «إذا ذهبت إلى سريري الآن، فكل ما سأحلم به هو اقتلاع أشجار البرتقال. لذا، من الأفضل أن أصنع المربّى».

- سوزي...

فهزت كتفيها: «أعلم. ما من شيء بأيدينا، أنا وأنت. أنا غير منصفة. أتظن أن مارسيا تحب أن تساعد؟».

www.elromancia.com

٨ - رجل وامرأة أخرى

وجدا السكر والكثير من الأوعية الزجاجية في غرفة التموين، كما بحث هاميش عن وصفة لتحضير المربى في الانترنيت.

ولم يبق سوى التركيز، وهو الأصعب. كان السكون يسود في المكان كلياً. فتافي وروز مستغرقتان في النوم بينما مارسيا تلازم غرفتها تتصل بالجانب الآخر من العالم.

أليس من المفترض أن يتبادلا الحديث بمودة أثناء الطهي؟ أليس هذا مدوّناً في الوصفة؟ وراحت سوزي تنظر إليه. كان ضخماً، بالغ الرجولة.

كان... مجرد... مجرد...

إنها في منتهى..

في منتهى ماذا؟ لم يكن يعرف. كانت تركز اهتمامها كلياً على العمل الذي بين يديها.

كانت تعمل من دون أن تفتر همتها، كما أنها ذكية ومثابرة. وكانت عيناها بالغتي...

سألته: «كم بقي برأيك؟».

فأجفل وعاد إلى عمله: «أظن أن هذا يكفي».

شرع يبتسم، لكنها كانت تنظر... متوقعة، فاستجمع أفكاره وتحوّل إلى الوصفة.

- حسناً. ضعي السكر والبرتقال معاً واغليها حتى تنضج.

- فقط؟

- هذا ما تقوله الوصفة.

- عظيم. اقرأ أنت وأنا أحرّك. اتفقنا؟

أخذ الاثنان يراقبان القدر الكبير المليء بالمربّى الذهبية اللون حتى أعلن هاميش أن المربّى جاهز.

كانت الأوعية النظيفة موجودة على الموقد. فأخذ هاميش يمسك بالواحد تلو الآخر بينما سوزي تملأه، حتى أصبح لديهما ثلاثون وعاءً مليئاً بمربى البرتقال الذهبي. ثم نظفا المكان، ثم أخذا ينظران إلى بعضهما البعض راضين.

لقد عملا طيلة الوقت بصمت تقريباً لأن الكلمات لم تكن ضرورية، كما رأت سوزي. والآن، وفيما هي تنظر إلى الأوعية الذهبية، ازدادت عدم ضرورة الكلام. ما قاما به هذا المساء...

ستحمل كل هذا معها إلى موطنها. هل ستأكلها؟ ربما لكن ستحتفظ على الأرجح بوعاء واحد.

كم يدوم المربّى؟ كم يدوم الحب؟ من أين أتت هذه الفكرة الغبية؟

وفكرت في رودي، وفي وقوفها بجانب الرجل الذي تحب، لتدلي بعهود الزواج. كانت تظن أن ذلك سيدوم إلى الأبد. وها هي ذي تقف بجانب هذا الرجل الضخم، الرقيق الفؤاد والذي هو ابن عم رودي. كان ما تشعر به نحوه.. مختلفاً.

طبعاً، فكيف يمكنها أن تحب هاميش؟

ولكن.. كيف لا يمكنها ذلك؟

قال هاميش بلطف وهو ينظر إلى الأوعية نظرة رجل راضٍ قام بمهمة صعبة: «إذا أرسلناها شحناً بالطائرة فستصل إلى أميركا بسرعة. وستتمكنين من أن تأكلي مربّى قصر لوغانيش كل صباح».

- هل ستحتفظ ببعض منها، أنت أيضاً؟

- بالتأكيد.

وتابع يقول: «إذا صنعنا، أنا ومارسيا، مزيداً من المربّى فيمكننا أن نرسل إليك البعض منه.

- هذه الكمية تكفي.

فقال ضاحكاً ومداعباً: «هذه ستدوم طويلاً. وكلما أكلت منها ستفكرين في أن أشجار البرتقال الذهبي لم تعش عبثاً».

كان يحب ابتسامتها إذ يتلاشى التوتر من حول عينيها فتبدو أصغر سناً وأهدأ بالاً.

لكن ما إن خرجت الكلمات من فمه حتى أدرك خطأه إذ ذكرتها بأن أشجار البرتقال هذه ستُقطع.

- أظنني سأتذكر أنها قطعت.

- يمكنك ذلك إذا شئت أن تكوني تعيسة.

- لا اريد أن أكون تعيسة.

- لا تفكري فيها إذن. انتقلي إلى حياة أخرى، يا سوزي.

- وأنسى هذا المكان؟

- نعم، إذا كان هذا يجعلك عاطفية.

- إذا امتنعت عن التفكير في كل ما يجعلني عاطفية، فسأعيش حياة جافة مملّة للغاية.

- هذه الطريقة تجعلك تتحكمين في نفسك.

- وهل هذا مهم؟

- طبعاً.

وتقدم يسوّي وضع وعاء شذّ عن المجموعة، فانكسر لينسكب المربى على الطاولة.

مدّ يده ليبعد الأوعية القريبة من الوعاء المكسور ثم أخذ يشتم عندما وصلت السخونة إلى يده فسقط وعاء آخر وانكسر كجاره.

قالت سوزي بانزعاج وحذر: «لو كنت مكانك لتركت الأوعية، لعل هذا يرينا متى يكون عدم النظام مقبولاً».

- لم يحدث لي قط أن...

- هاميش، إذا رفعت وعاء آخر، فستعرضها كلها للكسر. أنا متلهفة لأخذ بعض المربّى معي.

وأمسكت بذراعه وجرته إلى الحوض ثم أمرته قائلة: «دع الأوعية. يداك المسكينتان أولاً».

ووضعت يده تحت الماء البارد قبل أن تضيف: «سأحضر مرهماً للحروق».

لكنه هز رأسه: «إنها تافهة».

- ابق يدك إذن تحت الماء البارد لبعض الوقت.

كانت قريبة منه للغاية.. كانت تمسك بذراعه، مرغمة إياه على إبقاء يده تحت الماء. كانت بالغة...

- سوزي أنا آسف حقاً على الأشجار.

فقالت بجفاء: «لست مضطراً لذلك».

- لو لم أكن أرى كلام مارسيا منطقياً.. لو لم أكن أدرك أن أي شارٍ سيفعل هذا بالضبط.

فقاطعته وهي تشهق باكية: «طبعاً هذا كله منطقي».

- سوزي، لا تبك.

- أنا لا أبكي.

لكنها كانت تبكي. كانت عيناها مغرورقتين بالدموع التي تهدّد بالانهمار في أي لحظة.

قال بيأس: «لا بأس. لن نفعل هذا».

فتركت يده ذاهلة: «ماذا؟»

- لن نقطع أشجار البرتقال.

- هل لأنني بكيت؟
- لا أطيق أن أراك...
- لا تطيق أن تراني أبكي ولهذا تفعل ما أريد؟
فكرت قليلاً ثم زادت دموعها انهماراً فجأة: «أظنني بحاجة إلى جزء من ميراثك».
- سوزي...
- أريد ذلك. أريد ذلك حقاً، وأريدك أن ترتدي تنورتك كل يوم اثنين وذلك بقية حياتك.
فقال متراجعاً: «لا تكوني سخيفة».
مسحت وجهها بقفا يدها وقد توقفت دموعها فجأة وبان في عينيها لمعان خطير خبيث: «أنا لست سخيفة».
حدق إليها مذهولاً: «أنت... ذرفت هذه الدموع...»
- حسب رغبتي... حيلة بارعة، أليس كذلك؟
- لتحصلي على ما تريدين؟
- أنا لا أبكي أبداً لأحصل على ما أريد.
- لكنك فعلت ذلك لتؤلمك.
- صدق أو لا تصدق، أنا لم أفعل ذلك. إذا ظننت أني أريدك حقاً أن ترتدي تنورة، لتدفع نساء هذا العالم إلى الجنون...
- لماذا إذن؟
- كنت أغيظك يا هاميش دوغلاس. الغيظ! ألم تسمع بهذه الكلمة قط؟
- تغيظينني بالبكاء؟
- وهل يمكننا أن نستغني عن البكاء؟ سيكون ذلك محالاً.
كانت تحملق فيه، عيناها لا تزالان مبللتين، تتحداه أن... تتحداه أن...

- أكره أن أراك تبكين.
كانت كلماته غبية، لكنه لم يتمكّن من أن ينطق بكلمات أخرى.
- ولهذا أنا لا أبكي.
- سوزي...
فقالت بشيء من العداء وهي تشبك ذراعيها على صدرها وتحملق فيه: «ماذا؟».
- أنت مجنونة.
- هذا مؤكد، أنا مجنونة.
- أريد...
- ماذا تريد يا هاميش دوغلاس؟
ماذا تريد؟
وعلّق هذا السؤال في الهواء. حدق فيها، ملطخة بالمربّى، مشعثة، غاضبة، غير باكية... وفجأة... وفجأة، انجلى الضباب وتدافعت المشاعر في داخله.
الأمر الوحيد الذي استطاع أن يفكر فيه هو تصرّف أحمق جنوني غير حكيم. لكن ما إن فكّر فيه، حتى عجز عن إقصائه.
قال: «أريد أن أعانقك».
مضت لحظة صمت، لحظة صمت طويلة. وبدا عليها التفكير، لتقول: «حسناً، لماذا لا تفعل؟»
ما الذي يفكر فيه؟ أن يعانق سوزي؟
هل هو مجنون؟ ماذا عن مارسيا؟ يمكن لمارسيا أن تدخل في أي لحظة. فحتى لو لم تكن غيوراً متملكة، إلا أن رؤية خطيبها يعانق امرأة أخرى قد تخرجها قليلاً عن طورها.
وراح يبحث عن التحكّم في النفس الذي يؤمن به للغاية.
لكنه فقد تحكمه بنفسه فسوزي تقف أمامه مباشرة. سوزي الحبيبة

www.elromancia.com

ذات الرضوض والملطخة بالمربّى.

الحبيبة؟ من أين أتت هذه الكلمة؟

كانت موجودة فقط كما هي سوزي أمامه مباشرة، جاهزة تنتظر عناقه.

هل هي مجنونة؟ أتراها فقدت عقلها لكي تعانق هاميش؟ لتجده يعانقها؟

إنه مرتبط بامرأة أخرى، كما سترحل هي عن هذا المكان بعد غد ولن تراه مجدداً...

وهذا هو السبب... في قبولها أن يعانقها.

وضع يديه حول خصرها، متمهلاً. راح ينظر في عينيها بينما هو يجذبها إليه. كان يتأكد من أنه لا يرغمها على ذلك، يتأكد من أنها لا تشعر بأنها ارتكبت غلطة فيما تشعر بقلبها يكفّ عن الخفقان، لتعود و تتسارع دقاته وكأنه كان قد نسي هذا الشعور.

فهي قد وقعت، غرقت في حب هذا الرجل الواقف أمامها.

لكنه مرتبط بامرأة أخرى. حاولت أن تفكر في هذا لكنها لم تستطع.

لأن هذا وبكل بساطة، ليس مهماً. ها هو هاميش يرغب في أن يعانقها، جل ما يمكنها أن تفعله هو أن تنتظر... وترجو.

يمكنها ألاّ تفكر في مارسيا... أو رودي. ليس لديها وقت لتفكر في أي شيء غير هاميش، وعناقه.

ويمكنها أن تغرق في عناقه.

كانت سخيفة حمقاء حين وافقت على أن يعانقها.

لعلها ارتكبت غلطة سخيفة حمقاء لكنها لم تشأ أن تعترف بذلك. ليس الآن وهو بهذا القرب منها.

ليس هو... هاميش.

جذبها إليه وسمحت هي لهاتين اليدين الكبيرتين القادرتين، هاتين اليدين القويتين الجميلتين بأن تجذباها إليه. وارتفعت يده لتمسك بذقنها وتميل وجهها لتتقابل أعينهما.

كانت الأمور توحي بالأمل، بالكثير من الأمل. وابتسم لها، ابتسامة متفحصة بحسرة، تطرح من الأسئلة أكثر مما تعطي من الأجوبة. لكن نظراته حملت شيئاً من الحنان... من.. الحب؟

كان يطرح سؤالاً صامتاً، لكنها لم تستطع أن تجيب، وكيف يمكنها أن تجيب؟ وحدّقت فيه بعجز وقد تلاشت ابتسامتها وشعرت بقلبها يُعتصر.

ما الذي يفعله؟ يعانق امرأة هي ليست مارسيا؟ لكنه قرر أن ما يقوم به هو صواب. إنه يفعل ما يجب فعله. إنه يفعل ما تشوّق لأن يفعله منذ رأى سوزي لأول مرة.

شعرت به، بقوته الممزوجة بالحنان، بثقته الممزوجة بالتردد. ومع ذلك كانت تعلم أنها إذا تراجعت إلى الخلف، فسيتركها على الفور.

فهو ليس رجلاً يطالب بحقه، بل كان مثلها تماماً، غير واثق، ذاهلاً لقوة هذه المشاعر بينهما.

هاميش... واستقرت خفقات قلبها العنيفة. عندما مات رودي ظنت أنها لن تقع في الحب مرة أخرى... ولكن القلب يتسع.

إنها ما زالت تحب رودي، وستبقى على حبه حتى تموت. لكن هاميش رجل مختلف.. حب مختلف. حبها الجديد الرائع.

عانقها كما كانت تشتهي أن يعانقها لكنها لم تكن تعلم أن لديها مثل هذا الشوق إليه.

هاميش... لعلها نطقت باسمه... لم تكن تعلم.

كانت أصابعه تمرّ على شعرها مخلّفة مشاعر سحرية.

مضى عليها سنتان تقريباً لم يلمسها فيها رجل، وقد ظنت أنها لن

تتلهف يوماً إلى رجل آخر. لكنها كانت مخطئة، مخطئة بشكل رائع وممتع للغاية.

وتبخّرت مارسيا وكأن لا وجود لها. لكن هذه ليست خيانة، فسوزي ليست امرأة غدارة. لم يعد هاميش ينتمي إلى امرأة أخرى.

لقد أصبح هاميش جزءاً منها...

كانت رغبتها ساحقة. ولم تدرك مقدار وحدتها حتى هذه الليلة حين أدركت فجأة أنها لم تعد وحيدة.

هذا الرجل رجلها. أدركت هذا بشكل بدائي لم تستطع أن تفهمه ولم تشأ أن تحاول ذلك. المكان الوحيد في العالم الذي ستشعر فيه بالأمان هو هنا، بين ذراعي هذا الرجل.

بين ذراعي الرجل الذي تحب حقاً.

لن تكون وحيدة بعد الآن... وهاميش بجانبها ويمكنها أن تحتوي العالم.

همس بصوت غير ثابت: «سوزي.. يا إلهي سوزي، لن نستطيع».

- لن نستطيع...

جمدت مكانها، وأخذت تفكر، وإذا بالحقيقة تظهر أمامها، وعاد إليها الوعي بما حولها.

ابتعدت عنه قليلاً وأخذت تتفحص وجهه. بدا مشوّشاً، وخائفاً قليلاً، فقالت: «لا حاجة بك إلى الخوف».

فهز رأسه: «لست خائفاً».

كانت مارسيا في الطابق العلوي، وهاميش خطيبها وسوزي بمفردها. سوزي التي سترحل من هنا بعد غد. لم يقل هاميش قط إنه يريدها أو إنه بحاجة إليها. ومع ذلك ها هي تعرض عليه نفسها بشكل مبتذل.

لا يمكن أن تكون مبتذلة إذا عانقت رجلاً تحبه.

لكنه لا يحبها، وإلا لكانت عيناه مليئتين بالحب والرغبة، ولتقدم منها ليحتضنها. لكنه وبدلاً من ذلك، راح يحدّق فيها وكأنها ساحرة يمكنها أن تنفث سحرها!

- لم أشأ...

هذا ما كان ينقصها...

- لم تشأ أن تعانقني؟

- كلا. سوزي، إنني...

فقاطعته: «أنت خطيب مارسيا. طبعاً أنا... لقد تأخر الوقت ونحن متعبان جداً و.. ولم يكن هذا سوى عناق وداع، على أيّ حال».

وتعالى صوت في أعماقها يتهمها بالكذب فيما أومأ هاميش برأسه موافقاً، رغم أن عينيه كانتا تقولان إنه يعلم، كما تعلم هي، أن هذا غير صحيح.

- لا نستطيع... يا سوزي. أنا ومارسيا سنتزوج.

- طبعاً. علاقتنا، أنا وأنت مستحيلة. لأنني عاطفية للغاية.

فقال وفي صوته نبرة من الارتياح: «نعم. فأنت تبكين».

وشعرت وكأنها تريد أن تبكي الآن، لكنها لن تفعل. رغم أنّ شيئاً ما في داخلها يتحطم. شيئاً وُلد لتوّه.

كان لا يزال ينظر إليها وكأنه خائف. فأرادت أن تصرخ.. أرادت أن...

لم تعلم ما الذي تريده. وهمست: «أنا، طبعاً، أبكي. وأنت تكره البكاء. أنا أبكي طوال الوقت سواء أكنت سعيدة أم حزينة، وأنت لا تطيق ذلك».

وانحدرت دمعة على خدها فمسحتها بغضب. إنه محق... فهي

لا تستطيع أن تمتنع عن البكاء. وقالت تعترف: «أنا لا أتحكّم في نفسي. حسناً، هكذا خُلقت. ولكن مرت عليك لحظة لم تكن متحكماً فيها بنفسك أنت أيضاً. وهذا ما يخيفك، أليس كذلك؟ أنت تكره ذلك».

وأخذت نفساً عميقاً وهي تبحث بذعر عن كلمات تنهي بها موقفهما هذا، فوجدتها أخيراً: «مارسيا في الطابق العلوي يا هاميش. وهي خطيبتك، مستقبلك. أما أنا فعليّ أن أتفقد طفلتي وجروتي، فهما مستقبلي. وبمعانقتك أكون قد دخلت في مصير العالم، في السبيل الذي على الأمور أن تسلكه من الآن فصاعداً».

وقبل أن يتفوّه بكلمة أخرى، استدارت وهربت من باب المطبخ عائدة إلى جوف الليل.

إلى حديقة الخضار...؟ إلى المستنبت؟ إلى الشاطئ؟ لم يستطع أن يعرف. كانت عيناها مغرورقتين بالدموع ولم يستطع أن يتبعها. هل عليه أن يعود إلى مارسيا؟ كلا، بل سيذهب إلى السرير وحده.

٩ ـ أنا راحلة

صعد هاميش إلى الطابق العلوي وتوقف عند باب مارسيا سيئ المزاج. طرق الباب بخفة ثم فتحه ليجدها تتحدث في الهاتف وجهاز الكومبيوتر المحمول على ركبتيها. رفعت بصرها بسرعة وعندما رأته ألقت إليه بقبلة من بعيد.

رأى أنه غير مرغوب فيه فأغلق الباب ثم توجّه إلى غرفته.

السرير... النوم؟ لم يستطع أن ينام.

لماذا عانقها؟ إلهي، إذا ما تزوج سوزي فسوف تتوقع... أكثر من قبلة عن بعد كتحية؟ قد لا ينجح هذا الزواج أبداً. وفكر في البيت الذي نشأ فيه، وكم كافح للهرب من ذلك الجوّ. أما أن يرمي بنفسه في...

لكن سوزي لن تحاول أن تخدعه بالدموع. لا، لكنها لن تستطيع منع نفسها. ماذا تفعل حين ينهي عمله ثم يتوجه إلى بيته، مرهقاً إلى حد لا يصدّق، لينهار على السرير قبل أن يعود فينهض ليتوجّه مجدداً إلى المكتب؟ كيف سيناسب هذا سوزي؟

ستكره ذلك. وسيكره هو ذلك، ولن يفعله.

ماذا سيفعل بدلاً من ذلك؟

كفى.. أمر نفسه بعنف في ظلمة الليل، محدّثاً نفسه بأنه أمضى السنوات الثلاثين الأخيرة من عمره في بناء الحياة التي يريدها. فهل يلقي بذلك بعيداً من أجل... من أجل واحدة...

لكنه حدث نفسه عابساً بأنها لن تكون واحدة، بل أكثر. فسوزي لن تكون وحدها، فهناك روز، وتافي، وأكثر. ستطلب أكثر.

كن جاداً! انهض لترى ما تفعله مارسيا أو أخلد إلى النوم.

استلقى نصف ساعة أخرى مصغياً إلى همس البحر. كان الهدوء يلف القصر، وإذا بطرق على بابه. لا بد أنها مارسيا.

- أدخلي.

لكنها لم تكن مارسيا، بل سوزي التي وقفت تنظر حولها وقد بان القلق على وجهها.

- آسفة لإيقاظك من النوم.

- لم توقظيني. ماذا حدث؟

- لا شيء. أنا فقط... هل الجروة تافي هنا.

- كلا. هل هي مفقودة؟

خرج من السرير وقد بدا عليه الاهتمام فمدت يدها تمنعه من متابعة طريقه وهي تقول: «كلا. لا ضرورة لأن تأتي».

- ولكن إذا لم تستطيعي العثور عليها...

- لا بد أنها نائمة في مكان ما. هذا المكان كبير جداً. سنجدها عندما تستيقظ.

وشعر بأنها تجاهد لكي تجعل صوتها مرحاً. تباً! ما كان له أن يعانقها فقد سبّب هذه التوترات التي لا يعرف لها حلاً.

- نعم، ولكن...

- عد إلى سريرك يا هاميش.

- هل فتشت غرفة مارسيا؟

- نعم، كانت تعمل طيلة الوقت.

- دعيني أساعدك في العثور عليها.

- كلا، أرجوك يا هاميش. عد إلى فراشك.

- لكنني أحب أن أساعدك.

- لا أريدك أن تساعدني.

ثم ترددت، وعادت تقول: «هاميش. أريد أن أكون وحدي طالما أنا هنا. لا أدري لماذا حدث ما حدث الليلة، لكنه غباء لا معنى له. تصبح على خير».

وأغلقت الباب قبل أن يجيب.

كان عليه أن يتبعها، أن يساعدها في التفتيش. التفكير في سوزي وهي تفتش وحدها عن كلبتها في هذا القصر الفسيح، ضايقه.

ما الذي قالته؟ ما حدث الليلة غباء من دون معنى؟

طبعاً، وهما الاثنين يعرفان ذلك. سوزي امرأة تتحكم فيها عواطفها.

«تافي؟»

إذا سمع هاميش هذا النداء، فسيأتي للمساعدة. يجب ألاّ يسمع. ولكن أين تلك الكلبة الصغيرة في هذه الحديقة الواسعة؟ كما أن الصخور قريبة للغاية...

هل عليها أن تطلب المعونة من هاميش؟ لا، فقد طمأنته.

في السابعة صباحاً، دخل هاميش إلى المطبخ ليحضّر القهوة فوجد جيك مرتدياً ملابسه كاملة، وهو يسكب القهوة. قال بحذر: «صباح الخير».

استدار جيك وحدّق فيه تحديقاً يعبّر عن نفور قوي.

قال ببطء: «جميل منك أن تنضم إلينا».

نظر هاميش إلى ساعته وسأله: «هل أنت هنا لتتناول الفطور؟»

- تناولنا الفطور منذ ساعة.

- تناولنا؟

- أعني أنا والفتاتين. لقد أخذت كيرستي روز معها إلى البيت

وسوزي تفتش الدغل خلف الحديقة. وقد عدت أنا لكي أجري بعض الاتصالات الهاتفية. سنتلقى بعض الدعم، فسوزي لم تعد قادرة على التفتيش كما فعلت طوال الليل.

كان صوته بارداً كالثلج.

وتوقف قلب هاميش الذي قال: «تافي. ألم تعثر على تافي؟»

ازدادت ملامح جيك برودا: «قالت إنها أخبرتك أنّ الجروة مفقودة».

فقال هاميش: «لم تبق مستيقظة طوال الليل»

حدق هاميش طويلاً في جيك فبادله هذا التحديق، حتى قال هاميش بيأس: «عرضت عليها أن أساعدها في البحث، فقالت إنها واثقة من أن الجروة تنام في مكان ما في القصر، وأنها ستنبح عندما تستيقظ.

فقال جيك وكأنه يحدث نفسه: «النباح لا يفيد كثيراً عندما يكون الكلب في الخارج».

- إنها ليست في الخارج بل في القصر.

- لو كانت في القصر لنبحت.

- لكنها كانت محبوسة في الغرفة الرطبة. وضعتها سوزي هناك عندما وضعت روز في سريرها لتنام.

فقال جيك: «أظن أنّ مارسيا مرّت من الغرفة الرطبة الليلة الماضية ويبدو أنها تركت الباب مفتوحاً».

- أين مارسيا الآن؟

- تتصل بنيويورك . أين تظنها؟

سار هاميش إلى الباب ليرتدي بعض الملابس وهو يسأل جيك: «لماذا أنت هنا؟»

- اتصلت سوزي بكيرستي عند الفجر.

- من أجل جروة؟

فقال جيك بحرارة: «هذا غباء، أليس كذلك؟ مجرد جروة، لكن سوزي تحبها».

فأغمض هاميش عينيه: «سأرتدي ثيابي».

وقفت سوزي وسط الخليج، وأخذت تحدق إلى الشاطئ بطوله وهي تقول بيأس: «لا بد أنها ميتة. ومن الغباء أن نتابع البحث عنها.. غباء غباء غباء».

فقالت لها كيرستي: «لم نفقد الأمل بعد. نصف سكان دولفين بي خرجوا للبحث عنها. قال جيك إن العدد وصل إلى ثمانين شخصاً».

شهقت سوزي وقالت بمزيج من الضحك والبكاء: «ثمانون؟ من أجل جروة صغيرة؟»

- كلهم يحبونك.

خرج هاميش إلى الدغل خلف القصر.. وأمضى ثلاث ساعات في البحث فيما راح الأمل يتضاءل شيئاً فشيئاً. عندما عاد وجد المطبخ أشبه بمنطقة عسكرية للتخطيط.

سأل بحيرة: «ماذا كان يحدث لو أن المفقود طفل؟»

رفعت كيرستي بصرها إليه ومنحته ابتسامة مرهقة: «أكثر من هذا بكثير. الكل يعلم أن سوزي سترحل غداً، ونحن حزينون حتى قبل أن يحدث ذلك».

- أين سوزي الآن؟

فترددت: «أقنعتها بأن تستلقي قليلاً لتستريح».

نعم، كيرستي على حق.

- هل جيك في الخارج يبحث؟

- لدى جيك عملية جراحية فاضطر للذهاب.

إذن فقد عاد جيك إلى عمله، فقال: «حسناً، ثمة من لديه بعض

التعقل».

جمدت أساريرها لكلامه هذا. إنها تشبه سوزي حقاً لكن لعل ما قاله لم يكن . . مناسباً؟

قالت بلطف: «التعقل أمر غريب حقاً. حذار مما تظنه تعقلاً، يا هاميش دوغلاس».

- هاميش.

جاء هذا الصوت من الباب فالتفت ليرى مارسيا عند العتبة وعلى ملامحها عدم الرضا: «أين كنت؟»

- أبحث في الخارج.

فقالت له باختصار وقد بدا عليها الضيق: «أنت مطلوب».

- هل سوزي تطلبني؟

فأجابت بحدة: «بل مقيّم الفنادق. أنت تعلم أنه سيأتي هذا الصباح، وهو في غرفة الاستقبال الآن. لقد طفت به في الأنحاء لكنه يريد أن يتحدث إليك، وإلى سوزي».

فقال بضجر وهو يتخلل شعره بأصابعه: «سآتي، ولكن يجب ألاّ نزعج سوزي».

والتفت إلى كيرستي : «أعلميني إذا ظهر أي جديد».

كان على هاميش أن يركز انتباهه في حضور ممثل شركة دولية للعقارات. من الجنون ألا يقضي بعض الوقت معه لأن الجروة مفقودة، لا سيّما وأنّ سوزي جندت المدينة كلها لتمشيط الأراضي المحيطة بالقصر للبحث عنها . . . ما من شك في أن المكان الذي يريد هاميش أن يكون فيه هو في الخارج، مع فريق البحث.

لماذا؟ أخذ يتساءل بينما هو يجيب عن أسئلة المقيّم التي لا تنتهي عن تاريخ الأسرة.

قال المقيّم بذكاء: «سمعت بأن ثمة كلب ضائع».

كان ناعماً بارعاً عالماً بالضبط ما يريده. وتابع يقول: «مناظر المدينة الطبيعية الجميلة. أظن أنّ بإمكاننا أن نستفيد من هذا».

فقالت مارسيا: «أنا واثقة من أن بإمكانكم ذلك».

وقال المقيّم بأسف: «أودّ حقاً أن أتحدث إلى السيدة دوغلاس. هل أنت واثق من أن لا سبيل إلى ذلك».

فقال هاميش وهو يقف: «لا سبيل إلى ذلك. مارسيا، هل لك أن تري السيد لاتشلان الأراضي؟»

فقال لاتشلان: «لقد رأيت ما يكفي في الداخل. إنه رائع».

مروا في الردهة حيث انضمت إليهم سوزي. كان وجهها شاحباً وعلى خديها آثار دموع.

بدت وقورة، هادئة. وبعد أن قدمت نفسها احتلّت مكان مارسيا بجانبه وكأنه حقها ثم قالت له: «سأريك الحديقة. إنني واثقة من أن لدى مارسيا وهاميش ما يفعلانه».

قالت مارسيا موافقة: «علي أن أعود إلى اتصالاتي».

فمنحتها سوزي ابتسامة قصيرة متألقة: «طبعاً».

وقال هاميش بلطف: «وأنا سأعود للتفتيش».

لكن النظرة التي وجهها إليه لم يكن فيها أثر ابتسامة وقالت: «لا فائدة. لقد ماتت تافي».

وعادت إلى لاتشلان: «قالت مارسيا إنك ستفكر في تحويل المستنبت إلى بحيرة للسباحة. يجب أن تراه وسآخذك إليه».

فقال هاميش بضيق: «سوزي لست بحاجة إلى التفكير في ذلك» تلقى منها نظرة غاضبة. قبل أن تقول بحدة: «أعلم أنني لست بحاجة إلى التفكير في ذلك يا لورد دوغلاس. سأسافر بعد ظهر الغد، بعدها يصبح كل هذا من شأنك. هذا القصر بين يديّ الوارث، وهو أنت. وأنت ستبيعه وتضع المال في المصرف».

فقال هاميش بيأس: «سوزي اذهبي للبحث عن جروتك».

بدا على سوزي وكأنها تريد أن تصفعه: «جروتي ماتت».

لماذا إذن لا تبكي؟ خطر لهاميش أن عليها أن تبكي. يعرف ما عليه أن يفعله إذا بكت.

ماذا جرى له؟ هل يريد أن تبكي المرأة؟

وقال بلطف: «سنريه المستنبت معاً».

ازداد غضبها: «لن نفعل شيئاً معاً».

- سوزي...

فقالت مارسيا: «دعها تذهب. إن لديها الوقت، يا هاميش، بينما لديك ما هو أفضل لتفعله».

- سأذهب إلى الشاطئ.

فقالت مارسيا: «دع عنك هذا. ألم تسمع سوزي؟ لقد ماتت تلك المخلوقة».

المخلوقة؟ ويُفترض به أن يتزوج هذه المرأة!

المخلوقة؟

- ليس لدينا دليل على موتها. وسأستمر في البحث حتى نتأكد من ذلك.

وخرج تاركاً الجميع.

لماذا لم تبك؟

رأى هاميش سوزي تتحرك طيلة النهار كإنسان آلي. بدا جلياً أنّ ظهرها يؤلمها إذ راحت تعرج بشكل سيئ. وعندما نصحتها كيرستي بالكف عن البحث، توقفت عن ذلك وعادت إلى حزم أمتعتها.

قال هاميش في إحدى المراحل: «سوزي، أجّلي السفر قليلاً».

- لماذا؟

- لأننا لا نعرف مصير تافي.

- بل نعرف مصير تافي. كفى يا هاميش، أنا راحلة.

لم تشأ أن تتزحزح عن موقفها.

جاءت مارسيا عند الغروب تبحث عن هاميش. قابلته وهو في الطريق إلى غرفته ليغير ملابسه فقالت: «علينا أن ندعو لاتشلان على العشاء في الخارج. في الحقيقة يا هاميش، كان سلوكك بعيداً عن التهذيب. سيمكث في الفندق الليلة بينما من الأفضل أن يبيت هنا. لكنني أعرف أنك لن تطلب من الأرملة ذلك».

- هل عليك أن تسميها الأرملة؟

- أنت تعلم من أعني.

فقال بحدة: «لن أطلب من سوزي أن تستقبل ضيفاً جديداً في آخر ليلة لها هنا».

وأخذ يتساءل كيف لم يلاحظ انعدام الإحساس عند مارسيا، من قبل؟ وتابع يقول: «يكفيها إرهاقاً أننا هنا. سيحضر جيك وكيرستي العشاء، وسوزي بحاجة لأن ترى أسرتها فقط».

- علينا أن ندعوه على العشاء، فأنت لست من أسرة سوزي.

هذا صحيح. وتردد هاميش. مارسيا على حق. عليه أن يدعو لاتشلان على العشاء. ثم.. هل تريده سوزي أن يكون موجوداً الليلة؟

في هذه اللحظة، دخلت كيرستي من الباب الأمامي، فنادتهما: «العشاء بعد نصف ساعة».

قالت مارسيا بحزم: «ستتناول العشاء في الخارج».

رفعت كيرستي حاجبيها: «أنت أيضاً يا هاميش؟»

فقالت كيرستي: «لن أضغط عليك. ولكن من الأفضل أن تبقى هنا الليلة».

فسألتها مارسيا: «لماذا؟ لِمَ على هاميش أن يبقى؟».

أجفلت كيرستي قليلاً ثم قالت: «لتلطيف الجوّ. سوزي تعيسة. كانت تافي قطعة من «دولفين بي» تحملها معها».

فقالت مارسيا بحدة: «ستكون سوزي أفضل حالاً بدونها. كلما قلّت الأعباء كلما كان أفضل».

نظرت إليها كيرستي متأملة، ثم نظرت بطرف عينها إلى هاميش وسألت: «هل ستدعوان لاتشلان على العشاء؟»

- نعم.

- هلاّ أخذت لاتشلان للعشاء يا مارسيا فيما يبقى هاميش هنا، ليحاول أن يرفع من معنويات سوزي؟

فقال هاميش: «لا أظن أنّ لدي الكثير مما يمكن أن يرفع معنويات سوزي».

- هذا صحيح، ولكن يمكننا أن نحاول.

تردد. نظرت مارسيا إلى ساعتها ثم نظرت إلى هاميش فرأت تردده. أو لعلها رأت قراره.

فقالت وقد بان عليها الغيظ: «سأذهب».

ساد التوتر البالغ طيلة الوجبة. وكان توأم جيك وكيرستي الوحيدتين المرحتين أثناء الطعام.

- أبي، لماذا على الخالة سوزي أن تعود إلى أميركا؟

- لأن بيتها هناك.

فقالت بينيلوب: «نريدك أن تبقي هنا. ستكونين وحيدة هناك».

فقالت سوزي بصوت متهدج: «ستكون معي روز».

ونهضت لتحضر إناء القهوة ثم أخذت تسكبها: «أتريد قهوة، يا هاميش؟»

- نعم، أرجوك.

وقالت كيرستي: «لا تسكبي لي».

التفتت سوزي ببطء بالغ نحو أختها: «من عادتك أن تشربي القهوة بعد العشاء».

- أنا... ليس الآن.

فجأة بدا الارتباك على كيرستي فيما ازداد جمود سوزي وقالت بصوت خالٍ من أي تعبير: «كنت محقة. أنت حامل».

- آه، يا سوزي.

التوت ملامح كيرستي كدراً بينما قالت سوزي وهي تنحني لتحتضن التوأم: «هذا خبر جميل».

نظر هاميش إلى هذا المشهد من دون أن يفهم شيئاً، إذ لم يرَ أثراً للفرح. ما الذي يجري؟

- لم كن أريدك أن تعلمي.

- حتى متى؟

- حتى تستقري.. في أميركا.

سأل هاميش باهتمام: «ألا يحدث هذا تغييراً في الأمور؟».

كانت المرأتان على وشك البكاء، لكنهما لم تفعلا.

ردّت كيرستي بهدوء: «بكل تأكيد. لكن هل أطلب من سوزي أن تبقى لأنني حامل؟ كيف يمكنني أن أفعل هذا بها؟».

رأى هاميش أن هذا سهل، فهو يعرف تماماً مدى تأثير الابتزاز العاطفي.

قالت كيرستي: «لن أطلب منها ذلك ولهذا السبب نفسه لم تطلب منك سوزي عدم بيع القصر، وعدم تدمير المستنبت. أراهن على أنها لم تفعل هذا، فهل فعلت؟»

- كلا، ولكن...

فقالت سوزي بعنف مفاجئ: «وإذا فعلت ووافقت أنت، فكيف سيكون شعوري بقية حياتي؟ وإذا ظنّت كيرستي أنني بقيت من أجل

الطفل فقط... فلن تستطيع احتمال ذلك. لهذا السبب لم تخبرني. لا أدري من أين جئت أنت يا هاميش دوغلاس، لكننا لا نمارس الابتزاز العاطفي هنا».

وابتلعت ريقها وأدارت له ظهرها، لتواجه أختها: «متى موعد الولادة؟»

- ليس قبل تشرين الثاني. ما زال الوقت مبكراً.

- سأعود، إذا استطعت.

- طبعاً ستأتين.

- لكي تبقى؟

طرح هاميش سؤاله فتلقى حملقة أخرى جزاءه.

- للزيارة، كما يفعل الناس العاديون.

فقال شاعراً بالعجز: «لكنكما توأم ويجب أن تبقيا معاً».

فقال جيك وهو يمسك بيد زوجته ثم يضغط عليها بحب: «ستكونان معاً أثناء الولادة، هذا وعد. والنفقات عليّ أنا».

فقالت سوزي وهي تكاد تختنق: «آه يا جيك».

ظن هاميش أن الدموع قادمة أخيراً، لكن هذا لم يحصل بل أخذت سوزي تحدق في أختها وصهرها لحظة طويلة... ثم عادت إلى سكب القهوة.

١٠ - وحدة وفراغ

غادر جيك وكيرستي والتوأم المكان بسرعة ليفسحوا المجال لسوزي كي تنهي حزم أمتعتها بهدوء.

قالت لها كيرستي: «سنكون هنا غداً في الثامنة صباحاً لنأخذك».

- سأكون جاهزة.

وفكر هاميش مرة أخرى في سبب عدم بكائها. لقد بكت عند فوز يقطينتها فلماذا لا تبكي الآن؟ وفجأة، شعر بأنه يريدها أن تبكي، وبأن لا بأس في أن تبكي. فقد كره جمود ملامحها.

وقف في الردهة منتظراً عودتها ثم سألها برقة: «ماذا تريدينني أن أفعل؟»

فنظرت إليه قائلة: «لا شيء».

- سأنزل إلى الشاطئ إذن للبحث عن تافي لآخر مرة.

- لقد ماتت تافي.

- عليك أن تتمسكي بالأمل.

- لقد تخليت عن ذلك بعد أن دفنت رودي. والآن، إذا لم يكن لديك مانع، لدي ما أفعله.

- أيمكنني أن أساعدك في حزم أمتعتك؟

وخطر له أنه يزيد من اكتئابها لمجرد وجوده هنا فشعر بعجز لعين...

- سأكون ممتنة لو ساعدتني في غرفة أنغاس.

- ما بها غرفة أنغاس؟

فترددت، ثم قالت: «أنا لم أنظفها قط. أعني أنها ملكك الآن، لكن أشياءه الخاصة... معظمها مصيرة القمامة لكنني لا أريد أن تفعل مارسيا هذا».

نطقت الكلمات الأخيرة باندفاع وغضب، وظنها ستنفجر بالبكاء لكنها لم تفعل. كانت شاحبة ومتمردة وقد رفعت ذقنها وكأنها تتوقع قتالاً.

فقال بليونة: «مارسيا أقلّنا جميعاً عاطفة».

- لهذا السبب لا أريدها أن تكون من يهتم بالغرفة.

وهكذا، وفي الليلة التي يفترض بها أن تنهي حزم أمتعتها، جلست مع هاميش على أرض غرفة أنغاس، وأخذا يفرزان... الأغراض.

حاجيات ديردري وأنغاس.

قالت سوزي وهي ترفع تنورة أصغر من أن تصلح لهاميش: «لا أدري ماذا أفعل بهذه».

- لِمَ لا نقدمها هبة للعرض؟ يمكنني أن أقدّم خزانة عرض، نضع فيها صور أنغاس وديردري. ونعلق هذا الزي التراثي بجانبها.. أتظنين أن المواطنين سيحبون هذا؟

ترددت لحظة. وتساءل إن كان قد أخطأ في كلامه. وهل ستبكي؟ لكنها لم تبك، بل قالت بصوت خافت: «سيكون هذا رائعاً. هل ستقوم بما يلزم؟»

- طبعاً.

فأومأت باختصار إيماءة عملية.. جعلته يتمنى.. يتمنى لو أنها تتلعثم قليلاً كي تفسح له مجالاً... لماذا؟

قال مخترقاً الصمت: «لن أتزوج مارسيا».

رفعت رأسها بعنف من فوق الأوراق التي كانت تفرزها وسألت:

«ماذا؟»

لم يكن يعلم أنه سيقول ذلك... فهو لم يفكر حقاً في هذا، أو لعله فعل.

لقد عرض على مارسيا الزواج كما يقدم أي عرض عمل. لكن في الأيام القليلة الأخيرة، تغيّرت في حياته أمور كثيرة ما جعله يرى فجأة ألواناً مختلفة في حين لم يكن من قبل يرى سوى اللون الرمادي.

وفجأة، لم يتخل عن خوفه من المشاعر وحسب، بل اقتنع بأن القليل من المشاعر ليس بالأمر السيئ. ألن تبكي سوزي فيتمكن من أن يعانقها؟

- هل تعلم مارسيا أنك لن تتزوجها؟

- سأخبرها الليلة.

- سأكون شاكرة لو أرجأت ذلك إلى ما بعد رحيلي لأنها ستلومني أنا.

- ولماذا تلومك؟

بدت على شفتيها ابتسامة ملتوية: «إن تأثيري سيئ. لقد جعلتك تترك هاتفك الخلوي في البيت حين ذهبنا إلى الشاطئ».

فقال بجرأة: «هذا أيضاً أمر حسن».

ثم أخذ يتأملها لحظة بعد أن عادت إلى فرز الأوراق: «سوزي، هل أنت مضطرة للقيام بهذا العمل؟ يمكنني أن أقوم به بعد رحيلك».

- أرادني أنغاس أن أفعل هذا، وكان ينبغي أن أقوم به من قبل لكنني... لم أستطع.

وترددت... ثم سألته: «أتظن أنّ مارسيا ستكتئب؟»

أخذ يفكر في ذلك. هل سيحطم قلب مارسيا؟ كلا، لكن قد تُجرح كبرياؤها. وقال بأسف: «أظن أنه كان عليّ أن أخبرها قبل أن أخبرك».

- نعم، ستكره هذا. حسناً، إنس أنني أعرف.

فقال برقة: «أنا أريدك أن تعرفي».

ساد الصمت. أحنت رأسها فوق مغلّف يحتوي على مستندات، وكومة من أوراق الرسائل.

مزيد من الصمت. إلى أين يريد أن يصل؟ لم يكن يعلم.

منذ خمس دقائق، كان مرتبطاً بمارسيا. وما زال بإمكانه أن يبقى كذلك.

فما قاله الآن يمكن أن يبقى بين جدران الغرفة.

هو ومارسيا خطيبان؟ لا. فالخطوبة تعني الاتصال الروحي، الارتباط. وهو بالتأكيد ليس مرتبطاً بمارسيا.

لقد راقب الليلة جيك وكيرستي على مائدة العشاء. كان يرى أعينهما تتقابل، يتشاركان الأسى... وتلك النظرة الخاطفة... لم تكن شيئاً لكنها عنت كل شيء.

إنه يريد هذا النوع من التواصل مع المرأة التي يتزوجها.

قال لسوزي برقة: «اذهبي إلى فراشك».

فهو غير واثق مما يعتمل في ذهنه وإلى أين ستأخذه أفكاره. إنه بحاجة إلى وقت ينعم فيه النظر في كل هذا.

- هذه أشياء شخصية أريد أن أفرزها.

- سوزي، عليك أن تحزمي أمتعتك. طريقتك هذه في العمل لن تسمح لك بالنوم الليلة. ولن تستطيعي النوم في الطائرة وروز مستيقظة.

قالت بحدة: «هذا ليس من شأنك».

هذا صحيح، لكنه لا يطيق أن يرى هذا.

- ما من شيء شخصي هنا...

فقاطعته غاضبة: «هذه رسائل. رسائل شخصية».

- لنا، إذن، أن نقرأها.

خف غضبها قليلاً وبقي الألم. كانت راكعة على الأرض والأوراق منتشرة من حولها، بينما لا تزال ترتدي السروال القصير والقميص المقفل وخصلات شعرها متشابكة حول وجهها.. آخر ما فكرت فيه اليوم هو تمشيط شعرها. بدت صغيرة السن بشكل غير معقول. كيف يمكن أن تكون هذه الفتاة الصغيرة أماً؟ وكيف أمكن أن تكون مصممة حدائق؟ هل كانت سوزي ضد العالم أجمع؟

- أنا أعرف أن علينا أن نحرق هذه الأوراق من دون أن نقرأها. لكن أنغاس كان يعلم أنه سيموت فترك هذه... وهكذا ربما... ربما...

- ربما ماذا؟

- ربما لم يكن لديه مانع في أن نقرأها. لعله كان مزهواً بها. هذه من ديردري منذ أربعين سنة.

ساد صمت طويل بعد أن قرأت الرسالة.

كانت رسالة سخيفة. وحاول هاميش أن يتصور مارسيا تكتب رسالة كهذه، فلم يستطع.

حاول أن يتصور سوزي تكتب مثلها، فاستطاع ذلك وبكل سهولة.

سوزي وديردري... روحان توأم؟

- كيف تعارفا؟

فقالت ساخرة: «من دون انترنيت؟ إنه أمر يفوق الإدراك، أليس كذلك؟ قال أنغاس إنه استيقظ ذات صباح في مستشفى الجيش ليجدها واقفة بجانب سريره تبتسم له... فأدرك على الفور».

فقال باستخفاف: «حب في غرفة مزدحمة».

كانت سوزي تبتسم. وعندما تبتسم يشعر هاميش وكأن الشمس أشرقت.

هذه هي من أريد.

قال: «لا أظن...»

ثم سكت. فسألته: «لا تظن ماذا؟»

كان رأسها منحنياً وخصلات شعرها الجعد تسقط على جبينها فيما هي تركز على المهمة التي بين يديها.

- لا أظنك تحبين أن تتزوجيني؟

ساد الغرفة سكون مطبق بدا أنه سيدوم إلى الأبد؟

ما الذي قاله؟ كانت الكلمات ترن في هذا السكون ليتردد صداها مرة بعد مرة. لم يكن ينوي أن يقول هذا، لكن الكلمات انطلقت من فمه فجأة...

وأخيراً قالت سوزي وكأن أنفاسها انقطعت: «أتزوجك؟ هل تطلب مني أن أتزوجك؟»

- نعم.

أخذ يفكر في هذا وهو يتساءل عما يقوله، لكن هذه الكلمات ما زالت تبدو له صواباً. لعل عرض الزواج هذا جاء من وحي اللحظة لكنه لب المسألة التي يريد بكل تأكيد.

سألته: «وما السبب الذي جعلك تطلب مني الزواج؟»

بدت ذاهلة بشكل مهذب، وكان هذا خطأ، فهو لا يريدها أن تبدو ذاهلة بشكل مهذب.

قال وهو يستعيد ما قاله وما فكر فيه: «أظنني أحببتك».

بدا مشوشاً، وكان يشعر فعلاً بالتشوّش. لكن ليس بالنسبة للزواج... فهو واثق مما يريد.

- أنت خطيب مارسيا.

- لن أتزوج مارسيا.

- لكن مارسيا تظن أنك ستتزوجها.

- لقد اقترفت غلطة. أخبرتني جودي أنني أقترف غلطة، لكنني لم أر ذلك. الآن فقط...

- من هي جودي هذه؟ خطيبة أخرى؟

- جودي سكرتيرتي.

- هل ما زالت في حياتك؟

- سوزي. هل يمكننا أن نعود إلى الموضوع الذي يهمنا؟

- والذي هو أنك تريد أن تتزوجني؟

- نعم.

فكر في أن هذا غباء.

كان عليهما، على الأقل، أن يتناولا عشاء شاعرياً على ضوء الشموع.

وتذكّر الرقة البالغة التي عرض بها الزواج على مارسيا، والعشاء الذي سبق ذلك، وكاد يبتسم ابتسامة عريضة.

- لماذا تظن أنك تحبني؟

ودّ لو ينتقل إلى جانبها، لكنه رأى كلماتها أشبه بالدفاعية، سريعة وعفوية للغاية.

- سوزي. لا أريدك أن تذهبي إلى أميركا بمفردك.

- لن أذهب بمفردي فمعي روز.

- أنت تعلمين ما أعنيه.

- لست واثقة مما تقترحه.

لم تتحرك من مكانها كما لم يفعل هو. كان حديثاً أحمق مفرطاً بالرسمية وكأنه لا يخص أياً منهما.

وعادت تقول: «أتعني أنك تريدني أن أبقى هنا لتبقى أنت أيضاً، أم أن أعود معك إلى أميركا؟».

لم يكن تفكيره قد وصل هذا الحد. وحاول أن يجعل ذهنه يتحرك

لكن شيئاً أشبه بالضباب غطاه، جاعلاً التفكير المنطقي مستحيلاً.

كان الذعر يملأه وهو يخطو إلى حافة هاوية سحيقة.

قالت بلطف: «لا سبب يجعلك تبدو بهذا الشكل فأنا لن أقبل».

فسألها «بأي شكل؟»

أجابت باللطف نفسه: «وكأنك تراني حافة منحدر صخري شاهق. لن أفعل هذا بك».

- أنت لست حافة منحدر صخري شاهق.

لكن هذا ما خطر له، فكيف عرفت؟

- أنت لا تريد حقاً أن تتزوجني.

- بل أريد.

رأى أنه إذا بقي يكرر هذا، سيصبح الأمر مفهوماً. لا بد أن يصبح مفهوماً.

قالت بلهجة أقرب إلى التسلية: «ماذا ستفعل بي في مانهاتن؟»

- يمكنك أن تعملي.

- هل أزرع الأزهار في الإصص على النوافذ؟

- سنأخذ بيتاً في الضواحي... يمكنني أن أذهب إلى العمل يومياً.. أو ربما أمضي أيام الأسبوع في مانهاتن وأعود إلى البيت في العطلة الأسبوعية.

- أثناء أوقات الفراغ القليلة التي يتيحها لك العمل؟

- على الأقل لن تكوني وحدك.

تنهدت طويلاً ثم نظرت إليه. نظرت إليه حقاً قبل أن تنهض متثاقلة.

- هاميش هذا جنون. أنت لم تفكر في الأمر ملياً. إنس أنك قلت هذا. حان وقت ذهابي إلى السرير.

إنها تتركه وهو لا يريدها أن تتركه. صحيح أنه لم يفكر في هذا

بعمق لكن الشروط الأساسية موجودة. ونهض بسرعة وتقدم منها، ثم أمسك بمعصميها وقال بلهفة: «سوزي. يمكن لزواجنا أن ينجح».

- لا تكن سخيفاً.

- أنا لست سخيفاً.

فقالت برقة: «لولا شعورك بالأسى حيالي، هل كنت ستطلبني للزواج؟»

- لا، أنا...

- هذا ما ظننته.

تكلّمت بفتور وهي تسحب ذراعيها من يديه.

- لا!

انفجرت هذه الكلمة في أنحاء الغرفة، مخيفة بعنفها وأمسك بيديها بلهفة: «سوزي. الأمر ليس بهذا الشكل».

ابتلعت ريقها، وبدا عليها الضياع مثله: «لو أنني لست عرجاء، هل كنت لتفكر في التخلي عن مارسيا؟»

- لا يمكن أن أتزوج مارسيا فأنا لا أشعر نحوها بما أشعر به نحوك.

- لكنك تتحدث عن الذهاب يومياً إلى العمل، عن أوقات الفراغ، باللهجة نفسها التي تتحدث بها عن الزواج لئلا أكون وحيدة.

أخذت نفساً عميقاً، وسحبت يديها من يديه بحذر: «هاميش. قبل زواجي، كان لديّ أصدقاء كثر فلم أشعر يوماً بالوحدة».

- لكنك وحيدة الآن.

- لأنني تعرفت إلى رودي. عندما كنا معاً لم نعرف الوحدة. مرت علينا ليالي اضطررنا فيها إلى الافتراق، لكن فاتورة الهاتف كانت ترتفع. كنا ننام ونحن نتحدث إلى بعضنا البعض ونفكر في بعضنا البعض.

www.elromancia.com

- مثلنا، أنا وأنت...

- إخرس ودعني أنهي كلامي.

وتابعت بلطف: «عندما مات رودي عرفت معنى الوحدة. أسوأ أنواع الفراغ عندما يرحل الناس».

- سوزي...

- لقد استغرق التغلب على آلامي سنتين، كانت كيرستي خلالهما تأتي لتناول العشاء، وعندما تذهب يتملكني الشعور بالوحشة مرة أخرى. لقد شغفت بأنغاس، لكنه مات فعادت الكآبة تتملكني والفراغ. وما تعرضه عليّ... يا هاميش يجعلني، في كل مرة تخرج فيها من الباب، أشعر بالوحدة.

قال مجفلاً: «سأضطر للعمل».

لكنها هزت رأسها وكأنها حزينة لعدم تفهمه: «نعم. لكن عندما تذهب إلى العمل لن أكون معك».

- ما الذي...؟

- أعني في قلبك.

حدّق إليها مشتت الذهن فابتسمت: «هاميش، أنت لم تفهم. وربما لو لم أعش هذا مع رودي لما فهمت أنا أيضاً. لكن يا هاميش، لقد وقعت في غرامك».

وقعت في غرامه... ومد يديه لكنها تراجعت خطوة إلى الوراء، رافعة يديها تتجنبه: «لا».

- لا؟

- لا. إذا كنت تظن أنّ هذا سيجعل الأمور تتغيّر...

- هذا يغيّر مجرى الأمور طبعاً فقد وقعت أنا أيضاً في غرامك يا سوزي.

- أحقاً؟ أمضيت حياتك تدافع عن نفسك، تتعلم ألاّ تسمح لامرأة

بالاقتراب منك ولا أظنك ستمتنع عن ذلك الآن. ستمضي حياتنا الزوجية كلها وأنت تتوقع مني أن أسيطر عليك بالحيلة، هذا إذا كنت من الغباء بحيث أتزوجك، وأنا لست كذلك.

- أنا أعلم أنك لن تسيطري عليّ.

- لا. أنت لا تعلم هذا، أنت لا تعلم شيئاً عني.

- أعلم أنك أشجع من عرفت.

- هذا عطف وليس حباً. إذا متّ غداً، فهل ستبكي عليّ؟

فقال من دون أن يتمكن من منع نفسه: «أنا لا أبكي».

جمدت مكانها... وساد صمت طويل.. طويل. وأخيراً قالت: «لا. أنت لا تبكي».

- سوزي، أنا لست عاطفياً.

فقالت برفق: «حسناً، لعلنا متناسبان، فأنا أيضاً لست عاطفية».

- أتمزحين؟

فهمست: «هذه هي المشكلة. ما تراه ليس سوى القشرة الخارجية، أما الداخل فليس لديك فكرة عنه. والآن، إذا لم يكن لديك مانع، أودّ أن أذهب لأنام».

وحاولت أن تخرج لكنه وضع قدمه على العتبة: «سوزي، أرجوك أن تفكري في ذلك. سيكون هذا مناسباً».

فهمست: «هذا سيسلمني إلى الوحدة بقية حياتي. وأظن أنني أستحق ما هو أفضل من ذلك».

١١- هذا رجلي

هل كانت مجنونة؟

استلقت سوزي وأخذت تراقب الظلال. هذه آخر لياليها في هذا القصر.

لقد عرض عليها الرجل الذي تحب، الزواج. ولو كانت امرأة شجاعة لوافقت. وراحت تقول في سرّها: تزوجيه ثم اطرحي الأسئلة في ما بعد. فلتتملكك نوبة غضب عندما يمضي أربع عشرة ساعة يومياً في المكتب ويعاملك وكأنك على الهامش من حياته، وهذا ما سيحدث.

هذا الأسبوع كان مفيداً له، إذ رأى مارسيا خارج نطاق العمل فأدرك أي حياة عقيمة سيعيشانها. ولهذا وجد الحلّ السهل، وهو الحل النبيل. نبذ الخطيبة العملية الجدّية واختار امرأة غير سوية، عرجاء، ولديها طفلة. ها قد انحلّت المشكلة.

نهضت وسارت إلى النافذة وأخذت تحدّق في السماء التي ينيرها ضوء القمر.

شعرت سوزي بالغثيان، برغبة في أن تكون روز معها فتضمها إلى صدرها، ثم تخبرها بأنها قامت بما هو صواب: «لا أستطيع أن أفتح قلبي أكثر. هل يتسع القلب لكل قادم؟ كم من المرات تحطم ثم يشفى؟»

أرادت أن تبكي لكن الدموع لم تنهمر.

تباً! إذا لم تحزم أمتعتها الآن فلن تفعل أبداً.

- مارسيا. لا أستطيع أن أتزوجك.

إنها الساعة الثانية صباحاً. كان هاميش جالساً إلى مائدة المطبخ، منتظراً عودة مارسيا التي طالت. وها هي الآن تدفع الباب الخلفي وهي لا تزال تضحك. وعندما رأت هاميش في انتظارها جمدت مكانها.

خطر له أنه كان عليه أن يقول ذلك بلطف عندما رأى ضحكتها تذوي. لقد بقي ساعة جالساً هنا، يحاول أن لا يفكر بشكل منطقي. والأمر الوحيد الواضح في ذهنه هو ما قاله لتوّه.

لا يستطيع أن يتزوج مارسيا.

سألته: «ماذا؟ ما الذي أخبروك به؟»

طرف بعينيه: «ماذا قلت؟»

- يا لهذا المكان الجهنمي! كيف عرفوا؟

طرف بعينيه مرة أخرى، ثم ركّز انتباهه. بدا شعرها مشعثاً، ملوناً بالرمال فيما اشتبكت به طحالب البحر.

ما الذي يحدث؟

سألها بحذر: «هل كنت على كثبان الرمال؟».

أخذت تشتم وهي تهز شعرها لتسقط منه الرمال على الأرض: «يا إلهي.. من يسكن في مدينة صغيرة؟ منذ دخلت المدينة والناس تحدّق فيّ. كان عليّ أن أعلم».

وحملقت فيه بتمرّد: «ماذا تعني بقولك إنك لا تستطيع أن تتزوجني؟ لقد تملكني الملل. هل فهمت؟».

- هكذا إذن... فذهبت أنت ولاتشلان إلى كثبان الرمال؟

كانت خطيبته الهادئة القديرة مضطربة بشكل جدي.

- كان ذلك القليل من المرح وحسب! إننا في عالم عصري.

- أظنني قديم الطراز.

- حسناً، لا تكن كذلك يا هاميش. نحن نعيش حياتين منفصلتين، وهذا هو أساس علاقتنا كلها.

- أي علاقة؟

- نحن متلائمان وأنت تعلم هذا. نحن نؤلف فريقاً جدّياً فهل ثمة أهمية إذا التمسنا المتعة في مكان آخر؟

لم تحبه، كما أنه لم يحبها.. فإلى أين يتجهان؟

- أنا أحب سوزي.

توقفت عن نفض شعرها لتحدّق فيه غير مصدّقة: «لا بد أنك تمزح».

- لا أظن ذلك.

- ما النقاط المشتركة بينكما؟

- لا شيء، على ما أظن. هل أنت مغرمة بلاتشلان؟

- لست مغرمة به.

وأضافت بحدة: «إننا رفيقان متلائمان، أنت تعلم هذا. لقد تخليت عن العواطف في حياتك وإذا كنت على علاقة بالأرملة...»

- لست على علاقة بأحد.

- لكنك تريد هذه العلاقة؟ ومعها؟

كان الاستنكار وعدم التصديق ظاهرين في لهجتها ما جعله يشعر بالغباء. ولم يجد سوى جواب واحد، وهو: «نعم».

- لن تكون يوماً زوجة رجل أعمال.

- ربما.

تمالكت نفسها وقالت: «دعنا نناقش المسألة. لسنا بحاجة لقطع علاقتنا. أنا أريد اللقب».

- يمكنك أن تشتري لقباً إذا دفعت مبلغاً كافياً.

فقالت بما يشبه الفحيح: «وهل قطعت هذا الطريق كله مقابل لا شيء؟»

لم تعد مضطربة بل ثائرة غضباً.

- آسف.

- ليس بقدر ما ستكون عليه من آسف لاحقاً.

سمعت سوزي مارسيا تدخل. وسمعت دمدمتها الناعمة في المطبخ، ثم ارتفع الصوتان.

هل عليها أن تنهض وترى ما يحدث؟ لكن هذا ليس من شأنها، ووضعت الوسادة فوق رأسها لئلا تحاول استراق السمع. إنها لا تريد أن تعلم.. لا تريد.

استلقى هاميش على سريره وحدق إلى السقف وهو يتساءل ما الذي سيفعله.

أين سيجد النوم؟ كان القصر موحشاً بسكونه. في الساعة الخامسة، نهض وخرج إلى الدغل خلف الحديقة، سار في الممرات تحت ضوء القمر وهو ينادي مرة بعد مرة: «تافي».

إذا تمكن من العثور عليها... لم يكن واثقاً مما قد يعني ذلك. كان يعلم فقط أن سوزي تتحكم في أعصابها، وأنه لا يريد ذلك. فإذا استطاع أن يجد تافي، يمكنه أن يعرض عليها شراء بيت على ساحل البحر حيث يعيش مع سوزي. لكن الوحدة هي المشكلة، ستحتاج إلى كلب.

سيشتري لها كلباً لكن تافي أفضل.

لم يجدها. طبعاً لم يجدها. كان المنطق طريقته في مقاربة العالم. لطالما كان المنطق على حق. أما المشاعر... حسناً، لم يكن لها مكان في حياته.

ولكن، أصحيح هذا؟

عليه أن يقنع سوزي بشكل ما، ولكن حين اعترف بالهزيمة وعاد إلى القصر، أدرك أن الأوان فات.

كان القصر يعج بالحياة في وجود نصف سكان «دولفين بي». وكانت سوزي تحمل فنجاناً من القهوة والنساء من حولها.

رفعت بصرها عند دخول هاميش، وتلاقت أعينهما... فرأى آخر أمل يموت في عينيها: «ألم تجدها؟»

كانت تعلم ما يفعله، فهي أيضاً ليست منطقية. وبسط يديه قائلاً بيأس: «لا. سوزي...»

- هاميش، هلاّ ساعدت جيك في تحميل الأمتعة في السيارة؟

- طبعاً. سوزي، هل يمكنني أن أتحدث إليك؟

لكن سوزي لم تعد تنظر إليه وهمست: «سأرحل بعد نصف ساعة وعليّ أن أودع أصدقائي. لقد قلنا كل ما ينبغي أن نقوله الليلة الماضية».

وأغمضت سوزي عينيها. كان عليها أن تبكي، كما خطر لهاميش الذي شعر باليأس. كان عليها أن تشهق. لكن وجهها بقي جامداً مشتتاً وكأنه ميت.

- أرجوك، يا سوزي...

عادت ففتحت عينيها، وقالت بحدة وقد اختلط الغضب بالتعاسة: «دعني. ابتعد عما ليس من شأنك».

وابتعد.

كانت مارسيا تحزم أمتعتها هي أيضاً. خرج إلى الفناء فوجدها تحمل أمتعتها في صندوق سيارة لاتشلان.

- أبهذه السرعة؟

طرح هذا السؤال فرمقته بنظرة حاقدة.

- أنت لا تريدني هنا. سأتصل بك لنتحدث في التفاصيل المالية.

- التفاصيل المالية؟

- أضعت ثلاث سنوات من حياتي في تنظيم مستقبلنا لتفسده أنت مع أرملة غبية. إذا كنت تظن أنك ستخرج من ذلك بدون دعوى قضائية فعليك أن تعيد التفكير في المسألة».

وصمتت ثم قالت: «أنا أكرهك».

- ليس لديك مشاعر.

- بل لديّ الكثير لكني لا أريد إظهارها فهي تفسد الحياة.

نعم ثمة عواطف. لعلها ليست في مكانها، لكنها موجودة.

كحال عواطفه تماماً.

وبعد نصف ساعة، راح ينظر إلى سوزي وهي تصعد إلى سيارة جيك. لم تنهمر دموعها ولا يزال وجهها بذلك الشكل المتخشب المفزع الذي أصبح يعرفه... ويخافه.

- وداعاً يا هاميش.

لم يعد لديه خيار، فابتعد وتركها ترحل.

خلا القصر، بعد رحيل الحشود التي راحت تلوّح لسوزي مودّعة. وعاد سكان مدينة «دولفين بي» من حيث أتوا... إلى حياتهم التي لم تكن تتضمنه.

عاد إلى الردهة حيث سادت الكآبة، وتدافعت الأفكار في رأسه.

لماذا رأت سوزي أن عرض الزواج سخافة؟ إنه عرض جيد بحسب رأيه. لقد أخبرها أنه يحبها وأنه سيشملها برعايته، ويوفّر لها الأمان وكل ما تحتاجه.

ما الذي تريد منه أن يفعل؟ مهما كان ذلك، فليس بإمكانه أن يفعله. إنه لا يستطيع.

رن هاتفه فنظر إلى الشاشة وقطع الاتصال.

وهذا يعني أن مكتبه لن يتمكن من الاتصال، حسن هذا أفضل فهو

لا يريد الاتصال بأحد.

كانت سوزي وكيرستي واقفتين بين حشد من المسافرين بينما وقف جيك بعيداً حاملاً روز، مفسحاً لزوجته وأختها مجالاً كي تودّعا بعضهما.

- لكنك تحبين هاميش.

- إنه لا يفهم معنى الحب. دعي عنك هذا يا كيرستي، فقد انتهى.

- لكنك ستأتين حين يحين موعد ولادة طفلي؟

- أعدك بذلك.

كانت تتوقع أن تغرق في الدموع لكنها لم تجد دموعاً، لم تشعر برغبة في البكاء. شعرت وكأنها ميتة. وقالت لأختها: «كنت أحسن أخت في العالم، لكننا افترقنا. لديك حياتك ولديّ حياتي».

أخذ هاميش يسير في أنحاء القصر من دون هدف. عاد إلى غرفة أنغاس ونظر إلى الأوراق المتناثرة على الأرض. ثمة أوراق هامة لا يمكن تركها، ويتطلب فرزها بعض الوقت.

سيبقى يومين آخرين ثم يرحل.

اتصل بالخطوط الجوية وحجز مقعداً بعد يومين. أما الآن، فعليه فرز الأوراق. لكن ذهنه رفض أن يعمل. وغامت الأوراق أمام عينيه.

سيذهب إلى الشاطئ ويسبح وحده؟

ولكن عليه أن يفعل شيئاً ما. وهكذا توجّه إلى الشاطئ.

كانت المياه صافية منعشة البرودة في الماضي. كان كلما غطس في الماء، شعر أنّ بإمكانه أن ينسى كل ما حوله، ما عدا شعوره بالماء البارد على جسده، وقوة جسده، ودفء الشمس على وجهه.

لكن الأمر لم ينجح معه هذا النهار. إذ أخذ يلهث، شاعراً بالخوف وكأن هذا المكان يهدده بشيء ما.

كادت سوزي تفقد حياتها هناء ولم يكن موجوداً ليقذها. وحتى لو كان موجوداً لما سمحت له بالاقتراب منها.

عاد ينظر إلى الشاطئ فرأى نسراً يحلّق بتكاسل فوق الرأس البحري.

رآه يجمد مكانه ثم يحلّق ببطء، طويلاً، مركّزاً على شيء ما في الأسفل.

ثمة شيء ما... لعلها سمكة ميتة، لكن وجود هاميش أخاف الطائر الذي راح يدور مرة أخرى، ببطء.

بقي يراقب ما قد يكون على الصخور محدّثاً نفسه بأنها سمكة ميتة، ليس إلاّ. توجه نحو الصخور الحادة وجرح قدميه في محاولته الوصول إليها.

نظر إلى السماء فرأى الطير يركز اهتمامه على ما أمامه، على بعد مترين أو ثلاثة من الصخور.

سمكة ميتة...؟ لا. لم تكن سمكة ميتة بل تافي.... تافي متكوّرة نصفها بين الصخور والنصف الآخر في الخارج.

ظنها ميتة. حدّق طويلاً في تلك الكتلة المبللة من الفراء التي تحاول أن تجرّ نفسها خارج المياه بعجز.

نسي الصخور وقدميه، فركع على ركبتيه يخرجها من بين الصخور، وهو لا يصدق أنها ما زالت حية.

- تافي.

فتحت عينيها قليلاً، ولم يكد يصدّق وهو يرى ذيلها يتحرك بشكل ضئيل للغاية. ضمها إليه مدركاً أهمية ما حدث.

ما الذي حدث؟

كان هاميش يبكي. يا لجهنم! كان رابضاً على صخرة ينتحب كالطفل... تافي... سندفئك ونأخذك إلى طبيب بيطري.

لكن السير على الصخور بقدمين حافيتين أمر مستحيل. سيعود إلى الشاطئ سابحاً على ظهره وتافي على صدره... لكن إذا قاومت...

قال بحنان: «ثقي بي... يا تافي».

يبدو أنها فعلت، فقد استرخى جسمها.

وعاد يقول لها: «إياك أن تموتي فلدي خطط ممتازة لنا. يا إلهي، كيف كنت بهذا الغباء؟».

* * *

انغلق الباب خلفها.

مرت سوزي بمتاجر السوق الحرة، وبجموع المسافرين من دون أن ترى شيئاً. وقالت تحدث روزي: «لن أسمح لنفسي بأن أكتئب مرة أخرى. لقد سلكت ذلك الطريق ولن أسلكه مرة أخرى.. لو سمحت لهاميش بأن يأخذ ما يريد... لا. لقد بذلت جهدي في سبيل استقلالي فكيف أغامر مرة أخرى؟»

هذا هو أساس المشكلة. ربما يمكنها أن تغيره. ربما استطاعت أن تعلّمه الحب.

وقالت لروز: «إذا فشلت... لديّ أنت الآن لأفكر فيها يا حبيبتي. وأنا لست من الشجاعة بحيث أغامر مرة أخرى».

* * *

ذهل البيطري، ثم أشرق وجهه: «ما من ضرر مميت. سأعطيها محلولاً للتغذية بواسطة الوريد مدة أربع وعشرين ساعة. وعليك أن تحرص على إبقائها دافئة وجافة».

حدّق هاميش في الجروة الممددة على المائدة ثم شعر بوهن في ركبتيه. لقد تسلّق الصخور ليطلب العون ويصرخ عالياً ليخبر العالم كله أنه وجد تافي، لكن القصر كان خالياً.

وتابع البيطري مبتسماً: «ستبتهج سوزي للغاية. سأملأ أوراق

الحجر الصحي قبل سفرها، مرة أخرى».

وتملك هاميش الاكتئاب. سترحل تافي، فهي جروة سوزي.

لكنه لا يشعر بها وكأنها جروة سوزي، بل وكأنها من أفراد أسرته.

- هل آخذها إلى البيت؟

- تعود بها إلى القصر؟ ولكن هل يمكنك أن تمنعها من الحركة لكي يبقى المصل في الوريد؟

- بكل تأكيد.

وخرج بها إلى أشعة الشمس وهو يهز رأسه محاولاً أن يدرك أين هو.

لقد تغيرت الأمور... الأمور الهامة. أي طائرة استقلّت سوزي؟ وأخذ يحسب الوقت في ذهنه، وإذا ما انطلق الآن...

لم يشأ أن يعود إلى القصر.

عليه أن يجد شخصاً يهتم بتافي.

- ألم تجدوا الجروة؟ سيدي اللورد...

كانت هذه هارييت، فأجابها شارد الذهن: «أنا لست (سيدي اللورد). أنا هاميش».

- بالنسبة إلي، أنت سيدي اللورد، منذ رأيتك في تلك التنورة.

وحدقت في الصندوق، فبان عليها الذهول: «هل وجدت الجروة؟ رباه، أين كانت؟»

قال وهو يتقدم منها: «هارييت، هل ترين هذه اللافتة؟»

استدارت إلى حيث كانت قد كتبت (عائدون بعد خمس دقائق)

- هل يمكنك أن تجعليها خمس ساعات؟

نظرت إليه وكأنه مجنون: «لا أستطيع طبعاً».

- بل تستطيعين. فأنا سيدك اللورد كما قلت لتوّك. هارييت، أريد

منك أن تصعدي إلى مقعد السيارة الأمامي، ثم تحتضني تافي.

- لماذا؟

- سيدك الإقطاعي بحاجة إلى فتاته الجميلة.

الرحلة ٢٤٩ إلى لوس أنجلوس ستتأخر ساعة واحدة. نعتذر لهذا...

* * *

قالت سوزي لروز: «دعينا نذهب لشراء بعض العطور. أنت تحبين هذا، أليس كذلك يا حبيبتي؟».

* * *

- ماذا تعني بقولك إن دخولها ممنوع؟

- آسف، يمنع دخول الكلاب إلى المباني التابعة للمطار.

شهقت هاريت وقد أدركت ما هو آت.

- هاريت...

- ستطلب مني أن أجلس في السيارة مع تافي فيما الأمر أصبح ممتعاً.

وتنهدت ساخطة ثم عادت فضحكت: «لكنني لن أبقى في السيارة. سأجلس على عتبة الباب، لنتأمل الداخل والخارج. سيسرنا هذا أنا وتافي».

تأخرت رحلتها. الحمد لله! إنها ستون دقيقة لصالحه. ومع ذلك لم يكن الأمر سهلاً. قيل له عند البوابة: «لا يمكنك أن تدخل، إلا إذا كنت مسافراً».

- لكنني مسافر فعلاً.

وأخرج جواز سفره من محفظته وعرضه على الرجل: «أنا أميركي».

- يجب أن يكون لديك حجز لهذا اليوم على متن الطائرة. يمكننا

أن نوصل رسالة لمن تريد أن تراه.

فكر هاميش في أنها قد لا ترضى بالخروج، ولعل الرسالة لن تنجح.

توجّه إلى الخطوط الجوية الأميركية سائلاً: «لديّ تذكرة سفر موعدها بعد يومين، فهل يمكنني أن أستبدلها بتذكرة سفر لهذا اليوم؟»

- ما من أماكن شاغرة.

نظرت المضيفة إليه بارتياب فقد بدا متلهفاً.

بقيت البوابة مقفلة. لا بد أنها خلف هذه البوابة والتعاسة تتملكها. ولعلها تبكي... نظر إلى الشاشة فرأى أنّ طائرة سوزي ستقلع بعد خمس وأربعين دقيقة. سيبدأ المسافرون بالصعود إلى الطائرة في أي لحظة الآن.

بعدئذ، تنطلق الرحلة المتوجهة إلى نيوزيلاندا. كانت رحلة سوزي من الباب رقم (١٠) والرحلة إلى نيوزيلاندا من الباب رقم (١١).

حدّث نفسه بأن يتصرف بهدوء، وحاول وقد تملكه الانفعال أن يبدو متعقلاً ثم سار بحيوية إلى مكتب طيران نيوزيلاندا، شاعراً بالغثيان نتيجة التوتر الذي تملكه والجهد الذي يبذله لئلا يظهر ذلك.

- هل من الممكن أن أسافر عصر هذا اليوم؟ ليس لدي أمتعة إلا ما أحمله بيدي. سأعود إلى الولايات المتحدة بعد يومين، لكنني أنهيت عملي هنا. وأود أن أستفيد من الوقت المتبقي لرؤية بعض أقاربي في «أوكلاند».

نجحت لهجته الرسمية الآمرة إذ ابتسمت الموظفة وسألت: «هل لديك تأشيرة؟»

وكان لديه واحدة فعمله يتطلب منه التنقّل على عجل.

- ستقلع الطائرة بعد قليل.

* * *

لماذا تريد أن تشتري عطراً؟
لنلق نظرة على السجائر، لكنني لا أدخن.
كانت تحدث نفسها بصوت مرتفع، فسألتها المضيفة: «هل أنت بخير، يا سيدتي؟»
- نعم. كنت أحدث طفلتي عن مضار التدخين.
يا الله! لماذا تتطلب الإجراءات الأمنية هذا الوقت كله؟
- على المسافرين إلى نيوزيلاندا التوجّه إلى الطائرة.
لم تكن في قاعة الانتظار الخاصة بالمسافرين. أين هي؟
- هذا آخر نداء للمسافرين على متن الرحلة (٧٢٣) المتوجهة إلى «أوكلاند»...
أين هي؟
- عفواً يا سيدي. رحلتك ستنطلق. عليك أن تسلك هذا الطريق.
- لن أذهب قبل أن أجد من أبحث عنه.
تصاعدت جلبة قرب الباب، صياح، رجال، أمن، ركض...
وإذا بعملاقين يرافقان رجلاً عائدين به نحو المدخل.
التفتت سوزي من حيث تقف بين علب السجائر...
هاميش...
قالت وهي تعترضهما: «عفواً، إلى أين تأخذونه؟»
فأجاب أحدهما باختصار: «إلى مكتب الأمن. تنحّي جانباً يا سيدتي».
ألقت بالعلبة التي تحملها من يدها، واستطاعت أن تمسك بروز بصعوبة وهي تقول: «لا يمكنكما أن تأخذاه. إنه رجلي».

١٢ - عادت إلى العشيرة

عليك أن تعودي إلى البيت.
لم يذهبا إلى أي مكان حالياً. رفع رئيس المطار حاجبيه وهز كتفيه، ثم أشار إلى هاميش وسوزي بدخول مكتبه ثم أغلق الباب خلفهم...
بعدئذ، التفت إلى رجاله وأمرهم بأن يخرجوا أمتعتها من الطائرة، فالطائرة أقلعت الآن ما يجعل لحاقها بها مستحيلاً.
- وإذا اعترضت سأقاضيها بتهمة إزعاج السلطات.
ولم تعترض، بل همست عندما استطاعت أخيراً أن تجد فرصة لتتحدث: «لكنني ما زلت لا أفهم».
كان يعانقها وهي مندسة فيه تشمّ رائحة البحر التي تفوح منه.
- هل لأنك وجدت تافي...
- لقد بكيت عندما وجدت تافي، وارتحت لبكائي. ثم رأيت أنّ إرسال تافي إليك في أميركا، خطأ.
- إذن...؟
- أريد أن أتزوجك، أريد هذا أكثر من أي شيء في العالم.
ثم تردد، وعاد يقول: «سأقول هذا بشكل أفضل، كنت قد طلبت منك أن تتزوجيني، فرفضت وكنت محقة. لكن الأمر مختلف الآن، فهو أكثر من مجرد حب. سوزي، أريد أن نكوّن أسرة أكثر من أي شيء آخر في العالم».

- هذا يعني؟؟

- يعني إعادة ترتيب أمورنا. لن أعود بك إلى حياتي أو أكون جزءاً من حياتك. بل سنبدأ حياة جديدة حيث الانسجام التام.

فهمست برهبة: «هل هذا من أجل تافي فقط؟»

- بل من أجلك فقط. عندما وجدت تافي، ساورني شعور غريب. وخطر لي أني وجدت كلبتنا، لكنني فقدت أهم شخص في العالم بالنسبة إليّ. واستغربت أن أبكي جروة بينما ضاعت حياتي. وفجأة أدركت لما بكيت أنت، ولما توقفت عن البكاء. لا بد أنك تحبينني. أرجوك، يا سوزي...

- أنا أحبك طبعاً. وكيف يمكنني ألا أحب هاتين الركبتين؟

وحاولت أن تبتسم، فقال: «امرأة ذوّاقة».

وعانقته عناقاً أجاب عن الأسئلة كلها. ولم يعد ثمة حاجة للكلمات.

وهمس أخيراً: «أول مرة طلبت فيها منك أن تتزوجيني كنت مغفلاً».

وكان يحتضنها وكأنه لن يتركها أبداً حين أضاف: «لكني أقسم يا سوزي أن هذه المرة مختلفة».

فقالت بازدراء: «أعلم أنها مختلفة. أتظنني مغفلة؟»

- لست مغفلة.

- ألا يزعجك أني كنت متزوجة من قبل؟

- ألا يزعجك أنني كنت على وشك أن أتزوج مارسيا؟

- لا، لكن الأمر مختلف. أنت ومارسيا... لم تكونا خطيبين تماماً. لكنني كنت أحب رودي. لم أظن قط أنني سأقع في الحب مرة أخرى. لكن حبه، وهذا الحب... هو فقط...

- إنه حب لك كما أنت الآن.

واحتضنها بشدة مضيفاً: «أتخشين أن أغار من رودي؟ اسمعي يا سوزي، رودي فرد من أفراد أسرتي، وأنا بحاجة إليهم كلهم».

- كلا، ولكن...

لم يشأ أن تقاطعه: «رودي جزء منك. لقد أحبك واهتم بك، وأنا ممتن لأنه اختارك من العالم الفسيح وضمك إلى عشيرة دوغلاس».

فهمست: «كما أحضر أنغاس ديردري، فأصبحنا كلنا معاً».

وشعرت فجأة برغبة في القفز فبعد أن تبددت الصدمة لم يبق سوى البهجة، بهجة كادت، لقوتها، تدمّرها.

- هاميش، أتظننا سنعيش سعداء إلى الأبد؟

- لا أتوقّع أقل من هذا.

- وفي قصرنا؟

- في قصرنا بكل تأكيد. مع يقطينتنا.

وطارت أفكارها إلى العالم الخارجي فسألت: «أين تافي الآن؟»

- مع هارييت في الخارج. تعالي لرؤيتها.

وعندما وجدوا تافي أخيراً، لم تكن وحدها. إذ بدا وكأن نصف «دولفين بي» في انتظارهم.

قال جيك: «إذن فقد عدت إلينا».

لكنه لم يكن يوجّه الكلام إلى المرأة التي ودعها قبل ساعتين، بل إلى هاميش.

- هذا ما أظنه.

* * *

رسالة مرسلة عبر الانترنيت من هاميش دوغلاس إلى جودي كارمودي.

«عزيزتي جودي،

يسرّنا أنا وسوزي أن تقبلا دعوتنا لحضور عرسنا الشهر القادم،

هنا في «دولفين بي». قلت في رسالتك إن عملكما انتهى وإنكما تبحثان عن مغامرة قبل ولادة طفلك، فلعلكما تودان مشاركتنا مغامرتنا.

لقد تغيرت حياتي. لديّ الآن زوجة وطفلة وجروة وأرض مزروعة باليقطين. كما أني أقوم ببعض الصفقات المالية من هنا بسهولة لكنني بحاجة إلى سكرتيرة.

القصر بحاجة إلى أناس فقررنا أن نفتح قصرنا للأطفال المحتاجين. سيأتي الأولاد المحرومون إلى هنا لقضاء عطلة العمر، حيث يمضون أسبوعين هنا، على الشاطئ، يتعلمون خلالهما العناية بالحدائق والزراعة في مزرعة تجريبية تصممها سوزي الآن. لدينا الحماسة الكافية! لكننا بحاجة إلى شخص ذي تجربة وأتذكر أنك أخبرتني أن نيك ناشط اجتماعي يعمل مع أولاد محرومين ويحب هذا العمل. ونحن نتساءل إن كان يحب أن يعمل معنا.

جودي، نحن لا نقدم لنيك أو لك عملاً بدوام كامل لكننا نقدم التزاماً بدوام كامل.

ما نريده هو أن يكون لكما بيت في أراضي القصر، وأن تكونا شريكين في القصر وفي الزراعة. هذا القصر بحاجة إلى أسرتين، ونحن ندعوكما لتكونا شريكينا.

لا داعي لأن تجيبا بسرعة. فكّرا في الأمر فهذا ليس عرضاً مؤقتاً. ما رأيك يا جودي؟ هل ستشاركاننا سعادتنا الأبدية؟».

رسالة من جودي كالامودي إلى هاميش دوغلاس.

«نحن في طريقنا إليكم».